شروح المرجع المدرّسي

شرح روايات النبيّ وأهل بيته في
العقل
التوحيد
المكاسب
دعائم الأيمان

سماحة المرجع الدّيني آية الله العظمى الحاج
السّيّد محمّد تقي المدرّسي

مركز الفكر الرسالي
للدراسات والأبحاث

شروح المرجع المدرسي

شرح
روايات النبي وأهل بيته في
العقل
التوحيد
المكاسب
دعائم الإيمان

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي

مركز الفكر الرسالي
للدراسات والأبحاث

محفوظة جميع الحقوق

هوية الكتاب:

* **الكتاب:** شرح روايات النبي وأهل بيته في:العقل،التوحيد، المكاسب، ودعائم الإيمان (شروح المرجع المدرسي).
* **المؤلف:** المرجع الديني سماحة آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي (دام ظله).
* **الطبعة:** الأولى: ١٤٤٥هـ/ ٢٠٢٤م.
* **الناشر:** مركز الفكر الرسالي للدراسات والأبحاث.
* **الإخراج الفني:** الكليم جرافيك:

mohd.he@gmail.com
+973 36577227

مركز الفكر الرسالي للدراسات والأبحاث
www.resali.net
alfekralresali@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إن المعارف الإلهية تنهمر علينا من السماء كقطر المطر، فلا تترك رأس جبل ولا وادياً ولا صحراء ولا غابة إلا ويصيبها الماء، إن لم يكن وابل فطلّ، كلٌّ بقدر حاجته ووسعه، تلك هي المعارف الإلهية التي يغدقها علينا النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الأطهار عليهم السلام عبر كلماتهم النورانية التي نبني بها المعرفة الإلهية التي لا يتخلّلها الباطل ولا يصيبها الخلل ولا يطرأ عليها الصدأ، تبقى جديدة غضّة مع تجّدد الأزمان والأحوال، لأنها معرفة من نور، والنور مادة لا تتغيّر ويضيء بطبعه كل ما يقع عليه.

لكلمات المعصومين - مع الاعتراف بنوريّتها جميعاً - خصائص ومميزات، فمنها ما هو أصل وكلّي وقاعدة يُستنبط منها الفروع، فتتوزّع على الجزئيات وتستوعب الكثير من الأفراد، ومنها ما هو فرع يكشف عن حكم النوع ويستمر نوره في سائر ذات الأنواع وينطبق على نفس الحالات، وكلها بملاحظة هذا التقسيم نور يستطيل إلى الأمام ويمتدّ إلى الآفاق.

وفي هذا الكتاب الذي نقدّمه للقارئ العزيز، في سلسلة شروح المرجع المدرّسي (دام ظله) نتابع تقديم شروح الروايات الشريفة الصادرة عن أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام بوصفها الكلّي الجامع والأصول والقواعد،

وهي هنا مجموعة من الخطب والبيانات المطوّلة التي جادت بها صدور أهل الوحي، لنجد أن المرجع المدرّسي يقدّم لنا في شرحها شرحاً يأخذ في حساباته خاصية مثل هذه الخطب التي تنتج معرفة متكاملة لأنها من قسم روايات الأصول.

المعرفة المتكاملة هي ما يمكن أن نطلق عليه بالمعرفة المنهجية، أي إبراز المعاني والدلالات المترابطة في الخطب والبيانات كنظريات وتفسيرات كلّية، وكمنهج في طريق المعرفة، وكبصائر عامّة نفهم من خلالها معارف الإسلام ومقاصد الوحي الشريف.

ففي خطبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم حول العقل يُبيّن لنا الصفات التي تميّز بها العقل، وركّز على الترابط الوثيق بين سجايا الخير، ذلك الترابط الذي يبرز بدوره مفاهيم عميقة متصلة بطبيعة الشخصية الإنسانية.

وفي وصايا الإمام الكاظم عليه السلام لهشام حول العقل يبرز لنا مفهوم العقل الذي لا يقتصر فعله على إدراك الكليات ولا يقيّد بمناهج خاصّة تحجّم من دوره، مما يُعد خسارة لموهبة العقل.

وفي خطبة الإمام الرضا عليه السلام في معرفة التوحيد يستظهر فاعلية العقل في معرفة التوحيد الخالص.

وفي حديث الإمام الصادق عليه السلام في المكاسب يفصّل القول في الأبعاد الفقهية العامة، ويستنبط منه أصول العمل الاقتصادي وأحكام المكاسب.

وفي حديث الإمام علي عليه السلام يقدّم تحليلاً في دعائم الإيمان لكي يعتمر القلب بنور الإيمان، عبر أركانه الأربعة: الصبر واليقين والعدل والجهاد.

وفي وصيّة الإمام علي عليه السلام لابنه الإمام الحسن عليه السلام يوضّح لنا أن الإمام علي عليه السلام يذكر بشكل موجز منهجه في العلم حيث جمع كل الأخطاء التي يمكن أن يقع فيها الإنسان أثناء التعلّم، ويضعنا أمام محاور مهمّة في سبيل إيقاظ العقل وتنميته.

نقدّم للقارئ الكريم، هذا السفر الجليل من عطاءات سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرّسي (دام ظله) لينفتح على آفاق منهجية أصيلة تساهم في صياغة تفكيره للوصول إلى معرفة إلهية متكاملة، ونسأل الله تعالى الموفقية والسداد.

مركز الفكر الرسالي

للدراسات والأبحاث

1

شرح حديث
الرسول ﷺ عن العقل

حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن العقل

مقدّمات

ما هو العقل؟

كثير مـــن الألفاظ يطلقها النّـــاس دون أن يعرفوا معانيهـــا بوجه الدقّة، ويتّفق النّـــاس على تعليق فهم معانيها حتى يبلغوهـــا، ومن أبرز هذا النّوع من الألفاظ (الروح- العقل- النفس). والســـبب: إذا حاولنا تفقّد المعنى الصحيح للعقل، كان علينا أن نحيط بالفلســـفة إحاطة تامة، وعلم البشرية لم يبلغ حتى الآن مدى يمكّنه مـــن هذه الإحاطة، إلّا أنّ كلّ ذلك لا يمنعنا من طرح تعريف تقريبي لكلمـــة العقل، حتى تكون أقرب إلى أفهامنا حين نستعملها.

تعريف العقل:

كلمة العقل، من ناحية اللغة، مشـــتقة من عقله بمعنى ربط وثاقه ليحفظه

عن الإفلات[١]. وبهذه المناسبة يُطلق العرب العقل على ما يحفظ الإنسان من موجبات الردى.

ويُقابَل العقل عادة بالجهل والجنون، ويُقصد بالأوّل عدم القيام بما ينبغي القيام به لعدم معرفته أو لتغلّب الشهوة. ويقصد بالجنون وجود خلل في أعصاب الفرد ممّا يدعه غير قادر على العمل بما ينبغي عليه. وفي بعض الأحيان نستعمل لفظة الإرادة للدلالة على تلك الطاقة التي تجعلنا نقوم بما ينبغي لنا أن نقوم به، ونطلق على كشف ما ينبغي لنا أن نقوم به بالمعرفة والعلم.

فالعقل إذا هو ما بسببه نقوم بالعمل الصالح، وجاء في تعريف العقل عن الإمام الصادق عليه السلام حين سُئل: «**مَا اَلْعَقْلُ؟ قَالَ: مَا عُبِدَ بِهِ اَلرَّحْمَنُ وَاُكْتُسِبَ بِهِ اَلْجِنَانُ**»[٢].

ما هي الشهوة؟

تؤخذ كلمة الشهوة من الشهي والاشتهاء، ويعني الحب الشديد[٣]. وكلّ حاجة يتحسّسها الفرد، ويرغب نفسياً في اتباعها هي (الشهوة). فحاجة الطعام، واللباس، والجنس، والمأوى، إنّما هي شهوات.

ويطلق على الشهوة لفظ الغريزة أيضاً، ولكن باعتبار آخر وهو رسوخ نوعٍ من الشعور بهذه الحاجة في النفس.

---

(١) في معجم مقايس اللغة: العين والقاف واللام أصلٌ واحد منقاس مطرد، يدلُّ عُظْمُه على حُبْسة في الشَّيء أو ما يقارب الحُبْسة. من ذلك العَقْل، وهو الحابس عن ذَميم القَول والفِعل.

(٢) الكافي ج١ ص١١.

(٣) في لسان العرب تشهّاه: أحبّه ورغب فيه.

المفارقة بين العقل والشهوات:

نفى البعض أيّ فرق بين العقل والشهوة، زاعمين أنّ العقل نوع من الشهوة الكامنة، كما أنّ الشهوات هي العقل الظاهر، فالحاجة إلى الجنس قد يتحسّسها الفرد فعلاً، ويندفع نحوها عملاً، فهو- آنئذٍ- حنين شهوة، وعقل ظاهر، وقد يتحسّسها ويعلم أنّ طريق إشباعها وجود شرائع تنظّم مسألة الجنس، ثمّ وجود التزام عملي بهذه الشّرائع، والتي منها مثلاً التغاضي الفعلي عن الأنثى المختصة بجارك، فإذا أمسكت نفسك عنها فإنّك مدفوع بالشهوة، ولكن بصورة غير مباشرة، ومن هنا صحّ الادّعاء بأنّ العقل هو شهوة كامنة.

ولكن قال آخرون: إنّ العقل حقيقة متمايزة، كلّياً عن الشهوات، فهو:

أوّلاً: يُسيِّر الشهوات وينظّم أمر إشباعها.

ثانياً: قد يوقف الإنسان عنها إيقافاً تاماً، وبذلك يعطي البشر حرّية تفوق قوّتها قوّة كلّ ضغط وتعلو قدرتها قدرة كلّ شهوة.

ويقول هذا الفريق: إنّ وجود العقل هو الذي يعطينا القدرة على التمييز بين شهوة حاضرة وشهوة آتية، وعلى اختيار الثانية إن كانت هي الأسمى، ووضع شرائع في سبيل الوصول إليها، ثمّ التقيّد بها.

إذ إنّ العقل هو صمّام الضبط الذي لولاه لانفجرت الشهوات في اتجاهات عمياء. إنّ الفرق يبدو بسيطاً بين الرأي الأوّل والثاني، بيد أنّه كبير وفاصل بين آراء مختلفة في كلّ حقول الفلسفة والعلم.

ولذلك ينبغي أن نبيّن الحق بين الرأيين؛ كي يكون لنا القدرة على اختيار الحق في القضايا المنطقيّة التي نحاول بحثها بإذن الله.

الدليل إلى العقل:

ويتبيّن لنا الحق إذا استطعنا إقامة الدليل الواقعي على ثبوت العقل، إذ بدونه يبقى الرأي المنافي له قائماً بدون منازع، فما هو إذاً مدى صحّة الأدلة المقامة على ثبوت العقل؟

على كلّ فرد أن يتفكّر ليعرف بذاته ودون الاتّكال على أقوال الآخرين، ما إذا كانت الأدلة التالية وافية وسليمة أم لا؟

١- معرفة الحق والخير، والقدرة على إقامتهما رغم مخالفتهما للشهوات والمصالح الخاصة. هذه المعرفة والقدرة ليستا فقط ممّا يجدهما كلّ فرد في نفسه، بل ويعتقد بأنّهما ثابتتان لا ريب فيهما.

اذهب أنّى شئت، وقابل من أردت، فلن تجد إلّا من يسرّ إليك بوجدانه لهذه الحقيقة التي تعرّفه وتهديه إلى الحق من جهة، وتعطيه القدرة على الإيمان بهما من جهة أخرى.

٢- لاريب أنّ البشر قد يقوم بشيء يخالف مصالحه لمجرد زعمه بأنّه حق وخير، بحيث تعجز كلّ التفسيرات المصلحية لعمل شخص، حتى يثبت بالطريق الاستقرائي وجود ما هو فوق المصالح ليحدوه إلى القيام بهذا العمل.

٣- نحن في بعض الأحايين نجد في أنفسنا تنازعاً شديداً لا نستطيع أن ننكره، كما لا نقدر على اتخاذ موقف محدّد منه. فمثلاً: عندما تسنح لنا الفرصة في انتهاب أموال فقير، تجدنا نندفع نحوها بدافع الشّهوات ولكن سرعان ما نتراجع عنها بوازع العقل، ووجود هذا التناقض في أعمالنا أو التنازع في نفوسنا، دليلٌ على (الثنائية) في قوانا النفسية، وأنّ هناك عقلاً وشهوة.

٤- وهَبْ أنّنا لا نجد تنازعاً في نفوسنا، لكن هل نجد من أنفسنا القدرة على الامتناع من إشباع شهوة ما لحظة انفجارها؟ فلو كنتُ جائعاً وجلست على مائدة، وليس من مانع ولا وازع من الأكل أبداً، فهل أستطيع بإرادتي الامتناع عن الأكل، أم أنا مضطر إليه؟ طبعا أنا مختار في ذلك ولوجود (اختياري) وبعد تقدير ظروفي ومصالحي أقدم على أكل الطعام. صحيح أنّنا عندما تتوافر كلّ الدواعي والقيم على عمل لا نتردّد في القيام به، ولكن في ذات الوقت لا نتردّد- لحظة- في أنّ ما نقوم به إنّما هو بإرادتنا التي نستطيع أن نمتنع بها عن العمل، كما نستطيع أن نقوم به.

٥- بهذه الإرادة نتحمّل نحن مسؤولية أعمالنا، ولا نجد أنفسنا فقط مسؤولين، بل ونحمِّل الآخرين المسؤولية بصورة كاملة. وعلماء الدين، والقانون، وغيرهم لم يكونوا ينطقون بشيء لولا إيمانهم بوجود هذه المسؤولية.

كيف يُعرف العقل؟

هل يُعقل أن يُعرف العقل بغير العقل؟ نحن نعرف الأشياء جميعاً بعقولنا، والتي لو لم تكن سليمة لما عرفنا شيئاً. فهل هناك شيء فوق العقل نتعرّف على العقل به؟

إنّ الإنسان ليذهب بعيداً في متاهات الضلال لو بحث عن شيء فوق العقل ليفهم العقل به، إذ لا وجود لهذا الشيء، وفي حالة وجوده، يحتاج الإنسان إلى شيء آخر، فوقه أيضاً ليعرفه به، فهل يعقل هذا؟ ثمّ هل من المعقول أن يكشف العقل لنا حقائق الأشياء، ثمّ لا يكشف عن ذاته؟ أوليس هذا يشبه القول بأن الشّمس تضيء الدّنيا، ولكنها غير مضاءة؟ إذاً

فكيف تعطي الضوء وهي لا تملكه؟

وإن قلنا إنّ كلّ شـــيء في العالم معروف بنور العقل ولكن العقل لا نور له، وإذاً فهو غير معروف. أليس هذا تناقضاً؟

إنّ أولئك الذين حاولوا التعــرّف على العقل بغير ذاته ضلّوا عنه، إذ لم يجدوا فيما وراء شمس العقول إلاّ الظلام والضلال. بل إنّ مجرّد محاولة التدليل على العقــل نوع من التضليل الذاتي، اللّهــم إلاّ إذا حاولنا معرفة العقل من خلال أنواره التي تســقط على الأشــياء، فتضيئها وتكشفها لنا، تماماً كما نتعرّف على الشمس من خلال النور المنبعث منها في الفضاء.

وهذه المعرفة هي بدورها مرتبطــة بالعقل، فمن لا عقل له لا يفهم من الحقيقة شيئاً، ويكون أشبه شيء برجل يريد أن يبصر عينه ليؤمن بوجودها، فيأخــذ مرآة وينظر من خلالها إلى عينه، فهل يعنــي هذا أنّه رأى عينه بغير عينــه؟ مثلاً رأى عينه بأنفه أو بفمــه؟! كلا، إنّما رآها بعينه ذاتها ولكن من خلال المرآة، ولو افترضنا أنّ الرجــل أغمض عينيه ليبصرهما بعضو آخر فيه، أفلا تكون النتيجة أنّه يبقى يفتش عن عينه إلى الأ بد؟

كذلك الذي يحاول- مســتحيلاً- أن يجد عقله بغيــر عقله، ويظنّ أنّه يستغني عن عقله في رؤيته له.

والعلم ليس سوى جانب الكشــف في العقل، فالعقل يضيء الأشياء، والأشياء تضاء به و(لحظة الإضاءة) تسمى علم[1].

(١) يخوننا التعبير حين نريد أن نوضّح علاقة العقل بالعلم، وقد استخدمنا كلمة اللحظة لبيان هذه العلاقة وهي مشــتقة من مفهوم الملاحظة. أي أنّنا نلاحظ هذا الجانب من جوانب عديدة من الشيء الواحد وتستخدم هذه الكلمة فيما إذا كان للشيء الواحد جوانب مختلفة وبملاحظــة كلّ جانب يختلف التعبير عنه، فمثلاً: الرجل الواحد ابن وأخ وزوج وأب=

إذاً ليست هناك ثنائية في الحقيقة ببين العقل والعلم، إنّما هو نور واحد. إذا تحدّثنا عن لحظة كشفه عن الأشياء سمّيناه علماً، وإذا تحدّثنا عنه كشيء موجود وثابت سمّيناه عقلاً.

إذاً، لماذا الاختلاف في العقل؟ لماذا اختلف النّاس في العلم والعقل؟ أوليس هذا النور الذي يضيء الأشـياء جميعاً يجب أن يكون مضاءً بذاته، وواضحاً مميزاً مشـهوراً لا ريب فيه؟ فلماذا الجهل به؟ ولماذا الاختلاف فيه؟ الجواب:

أوّلاً: هناك حقائق بسـيطة واضحة يجهلها البشر ليس لشيء إنّما لمزيد وضوحها، حتى الشّـمس التي تضرب بها الأمثال لو لم تأفل ولم يكن لها ظلال لاختلف النّاس فيها.

أولم يختلف البشر في أمر الوجود والقدرة، وهي الحقائق التي انتشرت آياتها في الآفاق؟

ثانياً: لأنّ العقل هو المصدر الوحيد للمعرفة، ولأنّنا معه كلّما كنا واعين، ولأنّنا لا نستطيع أن نتصوّر أنفسنا بدونه، إذ كلّما تصوّرنا أنفسنا تصورناها بالعقـل، فإنّنا لا نبحث عنه، إنّما نبحث عن شـيء آخـر وراءه، وهذا هو الذي يعقّدنا. ذلك لأنّ القدرة على البحث في شـيء بحاجة إلى شرطين:

=وجد، وهو رجل واحد، ولكن هذه الألفاظ تعبّر عن جوانب عديدة عنه. كذلك العقل هو نور واحد ولكن لفظ العلم يعبر عن جانب واحد من عدة جوانبه وهو جانب الكشف. والتعابير المسـتخدمة مكان(لحظة) هي(لحاظ) و(حيث) و(من) الدالة على البعضية. والكلمة الأخيرة هي التي جاءت في الحديث عن الرسول ﷺ حيث قال ﷺ: ومن العقل العلم. بينمـا تكثر كلمة لحاظ وحيث، في تعابير الفلاسـفة حيث يقولون مثلا: العقل علم بلحاظ الكشـف، أو العلم حيث الكشـف من العقل، أو (حيث الكشف في الإنسان هو: علم).

أن يكون الشيء مجهولاً، وأن يُعرف بالبحث. والعقل ليس مجهولاً حتى يحتاج إلى دليل لأنّنا حين نبحث فيه فلا بد أن نتصوّره شيئاً مجهولاً، وهذا في الواقع ليس عقلاً إذ العقل لا يكون مجهولاً.

دعنا نبحث عن الماء، ونحن نسْبَح في البحر، إنّنا لا بد- آنئذ- أن نضلّ عنه، إذ طبيعة البحث تقتضي الجهل بالشـــيء، ولأنّ الماء ليس بمجهول، فلا بد أن نخلق شيئاً مجهولاً ونسمّيه بالماء ونبحث عنه.

التنبيه سبيل العقل:

إذا ارتاب شـــخص هل يملك عيناً أم هو أعمى؟ فأمامك ســـبل عديدة لتعرّفه بأنّه بصير.

أوّلاً: أن تأمره بأن يغمض عينيه ويلاحظ هل تختلف حاله، ولماذا؟

ثانياً: أن تذكّره بأنّه حين يرى الأشـــياء، فلا بد أن تكون رؤيته بوســـيلة، والعين هي تلك الوسيلة.

ثالثاً: أن تضع في كفه مرآة صافية، وتدعه ينظر من خلالها إلى عينيه.

هذه السبل لا تختلف عن بعضها في محتواها، الذي هو تنبيه الشّخص إلى عينه وتذكيره بها، كذلك العقل، السبيل إليه هو التذكرة والتنبه بأن:

١- نلاحظ أنفسنا في حالة افتقادنا له، هل نختلف عمّا إذا كنّا واجديه؟ ففي حالة الغضب الشديد، أو الشهوة العارمة، وفي الطفولة والشيخوخة، أو في النـــوم والغفلة، هل تختلف حالنا في هـــذه الحالات عن الحالات السويّة ولماذا؟

إنّ المزيد من التنبّه الذاتي للفرق بين الحالات يعطينا البصيرة بعقولنا،

ويجعلها تكتشف ذاتها أكثر فأكثر.

٢- الالتفات إلى أنّ الأشياء لا تُعرف بذاتها، إنّما هي بحاجة إلى وسيلة تكشفها لنا، وهذه الوسيلة هي العقول.

إنّ كلّ معلومة من معلوماتنا، وكلّ فكرة من أفكارنا آيةٌ من آيات العقل، وهدى يدلّنا عليه، إذ إنّنا لم نجدها إلاّ بالعقل، بذلك النور الذي لم يكن فينا حين كنا صغاراً، وحين نكون مخرفين من الكبر، وحين يذهب الغضب بحِلْمنا، وبالتالي حين نجهل شيئاً بأيّ سبب من الأسباب.

إلاّ أنّ مجرّد العلم بالأشياء لا يكفي لكي نعرف عقولنا، إذ إنّنا حين نعرف الأشياء لا نهتم بالوسيلة التي عرّفتنا عليها، إنّما تستقطب الأشياء كلّ اهتمامنا، كمثل الذي بصر الأشياء من حوله دون أن يتنبه إلى أنّ عينه هي التي كشفتها له، وأنّه بدونها لم يستطع أن يراها.

إنّما يجب أن نلتفت إلى أنّنا من دون نور العقل، لم يكن ممكناً لنا معرفة الأشياء، وهناك تصبح كلّ فكرة معلومة، وكلّ حقيقة مكشوفة، دليلاً جديداً على عقولنا، ليس هذا فقط، وإنّما أيضاً إثارةً للعقل من أجل كشف ذاته والتنبّه بحقيقته حتى يتميّز أكثر فأكثر من هواجس الذات، ونتائج الخيال.

هكذا تكون المعارف وسيلة للحصول على المزيد منها ولكن بطريق غير مباشر، إذ المعارف تهدينا إلى العقل إذا لاحظناها على أساس أنّه لم تكن معرفتنا بها ممكنة من دون العقل، وبتركيز هذه الملاحظة ينفتح العقل ويكتشف ذاته ويتميّز عن الهواجس الغريبة، وبذلك يهتدي الإنسان إلى مزيد من المعارف. ومن هنا يتجه المنهج الإسلامي إلى العقل، ويسعى نحو ترسيخ فهمه، لكي يجعل منه نقطة انطلاق لفهم الحياة.

وفيما يلي نثبت نصوصاً إسلامية بذلك:

١ - عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**اعْرِفُوا الْعَقْلَ وَجُنْدَهُ وَالْجَهْلَ وَجُنْدَهُ تَهْتَدُوا... إلى أن قال: وَإِنَّمَا يُدْرَكُ ذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ الْعَقْلِ وَجُنُودِهِ وَبِمُجَانَبَةِ الْجَهْلِ وَجُنُودِه**»[١].

٢- عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**فَكَانَ مِمَّا أَعْطَى الْعَقْلَ مِنَ الْخَمْسَةِ وَالسَّبْعِينَ الْجُنْدَ، الْخَيْرُ وَهُوَ وَزِيرُ الْعَقْلِ، وَجَعَلَ ضِدَّهُ الشَّرَّ وَهُوَ وَزِيرُ الْجَهْلِ، وَالْإِيمَانُ وَضِدَّهُ الْكُفْرَ، وَالتَّصْدِيقُ وَضِدَّهُ الْجُحُودَ، وَالرَّجَاءُ وَضِدَّهُ الْقُنُوطَ، وَالْعَدْلُ وَضِدَّهُ الْجَوْرَ، وَالرِّضَا وَضِدَّهُ السُّخْطَ، وَالشُّكْرُ وَضِدَّهُ الْكُفْرَان**»[٢].

يبيّن النص جنود العقل وجنود الجهل لكي ينبّه الإنسان إلى نور عقله تنبيها ذاتياً، يجعله يميّز في داخله هدى العقل عن تخبّط الجهل والشهوات.

٣ - قال الإمام أبو عبد الله عليه السلام: **اعْرِفُوا الْعَقْلَ وَجُنْدَهُ وَالْجَهْلَ وَجُنْدَهُ تَهْتَدُوا... إلى أن قال: وَإِنَّمَا يُدْرَكُ الْفَوْزُ بِمَعْرِفَةِ الْعَقْلِ وَجُنُودِهِ وَمُجَانَبَةِ الْجَهْلِ وَجُنُودِه**[٣].

٤- ومنها ما جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وسوف نتعرّض لقبسات منه في الصفحات التالية.

(١) الكافي، ج١، ص٢١، ح١٤.
(٢) بحار الأنوار، ج١، ص١١٠.
(٣) بحار الأنوار، ج١، ص١٠٩.

نص حديث الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم عن العقل

قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم فِي جَوَابِ شَمْعُونَ بْنِ لَاوَى بْنِ يَهُودَا مِنْ حَوَارِيِّي عِيسَى حَيْثُ قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الْعَقْلِ مَا هُوَ وَكَيْفَ هُوَ وَمَا يَتَشَعَّبُ مِنْهُ وَمَا لَا يَتَشَعَّبُ؟ وَصِفْ لِي طَوَائِفَهُ كُلَّهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ الْعَقْلَ عِقَالٌ[1] مِنَ الْجَهْلِ وَالنَّفْسَ مِثْلُ أَخْبَثِ الدَّوَابِّ فَإِنْ لَمْ تُعْقَلْ حَارَتْ[2] فَالْعَقْلُ عِقَالٌ مِنَ الْجَهْلِ، وَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْعَقْلَ فَقَالَ لَهُ: أَقْبِلْ، فَأَقْبَلَ، وَقَالَ لَهُ: أَدْبِرْ، فَأَدْبَرَ، فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي مَا خَلَقْتُ خَلْقاً أَعْظَمَ مِنْكَ وَلَا أَطْوَعَ مِنْكَ، بِكَ أُبْدِأُ وَبِكَ أُعِيدُ، لَكَ الثَّوَابُ وَعَلَيْكَ الْعِقَابُ».

«فَتَشَعَّبَ مِنَ الْعَقْلِ الْحِلْمُ، وَمِنَ الْحِلْمِ الْعِلْمُ، وَمِنَ الْعِلْمِ الرُّشْدُ، وَمِنَ الرُّشْدِ الْعَفَافُ[3]، وَمِنَ الْعَفَافِ الصِّيَانَةُ، وَمِنَ الصِّيَانَةِ الْحَيَاءُ، وَمِنَ الْحَيَاءِ الرَّزَانَةُ، وَمِنَ الرَّزَانَةِ الْمُدَاوَمَةُ عَلَى الْخَيْرِ، وَمِنَ الْمُدَاوَمَةِ عَلَى الْخَيْرِ كَرَاهِيَةُ الشَّرِّ، وَمِنْ كَرَاهِيَةِ الشَّرِّ طَاعَةُ النَّاصِحِ، فَهَذِهِ عَشَرَةُ أَصْنَافٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْخَيْرِ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْعَشَرَةِ الْأَصْنَافِ عَشَرَةُ أَنْوَاعٍ، فَأَمَّا الْحِلْمُ فَمِنْهُ رُكُوبُ

(١) بكسر العين: حبل يشد به البعير في وسط ذراعه.

(٢) أي هلكت.

(٣) بفتح العين: الكف عمّا لا يحل أو لا يجمل.

الجهل [الْجَمِيلِ] وَصُحْبَةُ الْأَبْرَارِ وَرَفْعٌ مِنَ الضِّعَةِ[١] وَرَفْعٌ مِنَ الخَسَاسَةِ وَتَشَهِّي الْخَيْرِ وَيقرب [تَقَرُّبُ] صَاحِبِهِ مِنْ مَعَالِي الدَّرَجَاتِ وَالْعَفْوُ وَالْمَهَلُ[٢] وَالْمَعْرُوفُ وَالصَّمْتُ[٣] فَهَذَا مَا يَتَشَعَّبُ لِلْعَاقِلِ بِحِلْمِهِ».

«وَأَمَّا الْعِلْمُ فَيَتَشَعَّبُ مِنْهُ الْغِنَى وَإِنْ كَانَ فَقِيراً وَالْجُودُ وَإِنْ كَانَ بَخِيلاً وَالْمَهَابَةُ وَإِنْ كَانَ هَيِّناً وَالسَّلَامَةُ وَإِنْ كَانَ سَقِيماً وَالْقُرْبُ وَإِنْ كَانَ قَصِيّاً وَالْحَيَاءُ وَإِنْ كَانَ صَلِفاً وَالرِّفْعَةُ وَإِنْ كَانَ وَضِيعاً وَالشَّرَفُ وَإِنْ كَانَ رَذْلاً وَالْحِكْمَةُ وَالْحُظْوَةُ فَهَذَا مَا يَتَشَعَّبُ لِلْعَاقِلِ بِعِلْمِهِ فَطُوبَى لِمَنْ عَقَلَ وَعَلِمَ».

«وَأَمَّا الرُّشْدُ فَيَتَشَعَّبُ مِنْهُ السَّدَادُ وَالْهُدَى وَالْبِرُّ وَالتَّقْوَى وَالْمَنَالَةُ وَالْقَصْدُ وَالِاقْتِصَادُ وَالثَّوَابُ وَالْكَرَمُ وَالْمَعْرِفَةُ بِدِينِ اللَّهِ فَهَذَا مَا أَصَابَ الْعَاقِلُ بِالرُّشْدِ فَطُوبَى لِمَنْ أَقَامَ بِهِ عَلَى مِنْهَاجِ الطَّرِيقِ».

«وَأَمَّا الْعَفَافُ فَيَتَشَعَّبُ مِنْهُ الرِّضَا وَالِاسْتِكَانَةُ وَالْحَظُّ وَالرَّاحَةُ وَالتَّفَقُّدُ وَالْخُشُوعُ وَالتَّذَكُّرُ وَالتَّفَكُّرُ وَالْجُودُ وَالسَّخَاءُ فَهَذَا مَا يَتَشَعَّبُ لِلْعَاقِلِ بِعَفَافِهِ رِضًى بِاللَّهِ وَبِقَسْمِهِ».

«وَأَمَّا الصِّيَانَةُ فَيَتَشَعَّبُ مِنْهَا الصَّلَاحُ وَالتَّوَاضُعُ وَالْوَرَعُ وَالْإِنَابَةُ وَالْفَهْمُ وَالْأَدَبُ وَالْإِحْسَانُ وَالتَّحَبُّبُ وَالْخَيْرُ وَاجْتِنَابُ الشَّرِّ فَهَذَا مَا أَصَابَ الْعَاقِلُ بِالصِّيَانَةِ فَطُوبَى لِمَنْ أَكْرَمَهُ مَوْلَاهُ بِالصِّيَانَةِ».

«وَأَمَّا الْحَيَاءُ فَيَتَشَعَّبُ مِنْهُ اللِّينُ وَالرَّأْفَةُ وَالْمُرَاقَبَةُ لِلَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ

---

(١) بكسر الضاد و فتحها: حط النفس.

(٢) بفتح الميم و سكون الهاء و فتحها: الرفق و التؤدة في العمل، و التقدّم في الخير، والمعنى الأول هو المراد هنا.

(٣) بفتح الصاد و سكون الميم: السكوت، أي عمّا لا يعنيه و لا يهمّه وما يكون فيه الضرر شرعاً أو عقلاً.

وَالسَّلَامَةُ وَاجْتِنَابُ الشَّرِّ وَالْبَشَاشَةُ وَالسَّمَاحَةُ[١] وَالظَّفَرُ وَحُسْنُ الثَّنَاءِ عَلَى الْمَرْءِ فِي النَّاسِ فَهَذَا مَا أَصَابَ الْعَاقِلُ بِالْحَيَاءِ فَطُوبَى لِمَنْ قَبِلَ نَصِيحَةَ اللَّهِ وَخَافَ فَضِيحَتَهُ».

«وَأَمَّا الرَّزَانَةُ فَيَتَشَعَّبُ مِنْهَا اللُّطْفُ وَالْحَزْمُ وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ وَتَرْكُ الْخِيَانَةِ وَصِدْقُ اللِّسَانِ وَتَحْصِينُ الْفَرْجِ وَاسْتِصْلَاحُ الْمَالِ وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْعَدُوِّ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتَرْكُ السَّفَهِ فَهَذَا مَا أَصَابَ الْعَاقِلُ بِالرَّزَانَةِ فَطُوبَى لِمَنْ تَوَقَّرَ وَلِمَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ خِفَّةٌ وَلَا جَاهِلِيَّةٌ وَعَفَا وَصَفَحَ».

«وَأَمَّا الْمُدَاوَمَةُ عَلَى الْخَيْرِ فَيَتَشَعَّبُ مِنْهُ تَرْكُ الْفَوَاحِشِ وَالْبُعْدُ مِنَ الطَّيْشِ[٢] وَالتَّحَرُّجُ وَالْيَقِينُ وَحُبُّ النَّجَاةِ وَطَاعَةُ الرَّحْمَنِ وَتَعْظِيمُ الْبُرْهَانِ وَاجْتِنَابُ الشَّيْطَانِ وَالْإِجَابَةُ لِلْعَدْلِ وَقَوْلُ الْحَقِّ فَهَذَا مَا أَصَابَ الْعَاقِلُ بِمُدَاوَمَةِ الْخَيْرِ فَطُوبَى لِمَنْ ذَكَرَ مَا أَمَامَهُ وَذَكَرَ قِيَامَهُ وَاعْتَبَرَ بِالْفَنَاءِ».

«وَأَمَّا كَرَاهِيَةُ الشَّرِّ فَيَتَشَعَّبُ مِنْهُ الْوَقَارُ وَالصَّبْرُ وَالنَّصْرُ وَالِاسْتِقَامَةُ عَلَى الْمِنْهَاجِ وَالْمُدَاوَمَةُ عَلَى الرَّشَادِ وَالْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَالتَّوَقُّرُ وَالْإِخْلَاصُ وَتَرْكُ مَا لَا يَعْنِيهِ وَالْمُحَافَظَةُ عَلَى مَا يَنْفَعُهُ فَهَذَا مَا أَصَابَ الْعَاقِلُ بِالْكَرَاهِيَةِ لِلشَّرِّ فَطُوبَى لِمَنْ أَقَامَ الْحَقَّ لِلَّهِ وَتَمَسَّكَ بِعُرَى سَبِيلِ اللَّهِ».

«وَأَمَّا طَاعَةُ النَّاصِحِ فَيَتَشَعَّبُ مِنْهَا الزِّيَادَةُ فِي الْعَقْلِ وَكَمَالُ اللُّبِّ وَمَحْمَدَةُ الْعَوَاقِبِ وَالنَّجَاةُ مِنَ اللَّوْمِ وَالْقَبُولُ وَالْمَوَدَّةُ وَالْإِسْرَاجُ وَالْإِنْصَافُ وَالتَّقَدُّمُ فِي الْأُمُورِ وَالْقُوَّةُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ فَطُوبَى لِمَنْ سَلِمَ مِنْ مَصَارِعِ الْهَوَى فَهَذِهِ الْخِصَالُ كُلُّهَا يَتَشَعَّبُ مِنَ الْعَقْلِ»[٣].

---

(١) بفتح السين المهملة: الجود.

(٢) بفتح الطاء و سكون الياء: النزق و الخفة، و ذهاب العقل.

(٣) بحار الأنوار، ج١، ص١١٩، عن تحف العقول.

استقلال العقل

كلّ الأحاديث الدينية التي تناولت العقل- فيما بينها هذا الحديث- بيّنت واقع الاستقلال للعقل؛ الاستقلال عن الطبيعة وأهوائها وشهواتها ومتغيراتها.

وركّزت الأحاديث الدينية على أنّ العقل هو أداة حرّية الإنسان عمّا حوله من ضغوط وقيود وأغلال، ووسيلة تفوّقه وتعاليه وسيادته على ما حوله من أشياء الكون، وبالتالي سبب تفضيل الرحمن له على كثير ممّا خلق وتكريمه، وتحميله المسؤولية الكبرى.

ولقد اختلفت تعابير الروايات الدينية عن استقلالية العقل، إلّا أنّ التعبير الأكثر شيوعاً هو هذا التعبير الذي جاء في هذا الحديث:

«إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْعَقْلَ فَقَالَ لَهُ: أَقْبِلْ، فَأَقْبَلَ، وَقَالَ لَهُ: أَدْبِرْ، فَأَدْبَرَ، فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي مَا خَلَقْتُ خَلْقاً أَعْظَمَ مِنْكَ».

وقد أراد الرسول أن يبيّن مدى استقلالية العقل، في الخلق والنشء، وأنّه يُخاطَب وأنّه يقبل ويدبّر.

العقل يطيع الله

ثمّ إنّ أبرز ميزات العقل هي (الطاعة لله) حيث قال اللّه تعالى له:

«مَا خَلَقْتُ خَلْقاً أَعْظَمَ مِنْكَ وَلَا أَطْوَعَ مِنْكَ».

وجاء في حديث آخر أنّ العقل:

«مَا عُبِدَ بِهِ الرَّحْمنُ، وَاكْتُسِبَ بِهِ الْجِنَان»[1]. ولكن لماذا؟ وكيف أنّ

(١) عن الإمام الصادق عليه السلام، الكافي، ج١، ص٢٥.

العقل أداة طاعة اللّه عند الإنسان؟ الواقع أنّ الطاعة لله تعني: التسليم للقيم المجردة التي يأمر بها اللّه، والقيم هي البنت الشّرعية للعقل ليس إلاّ. ثمّ إنّ الطاعة لله تعني: التحرّر عن عبادة غير اللّه من أشياء أو أشخاص.

والعقل- بعدئذٍ- النقطة المركزية التي تبدأ منها وتنتهي إليها أحكام اللّه، وبالتالي هو المقياس و(الميزان) المستقيم الذي يقيّم الأفعال به. وبتعبير آخر، العقل هو المحور الثابت في متغيرات الكَون، فالأجيال تتبع بعضها بعضاً، وصِيَغ الحياة تختلف، ومظاهر الأمور تتحوّل ويبقى الحكم هو الحكم، والمقياس هو المقياس. لذلك جاء في هذا الحديث: «**بِكَ أُبْدِأُ وَبِكَ أُعِيدُ، لَكَ الثَّوَابُ وَعَلَيْكَ الْعِقَابُ**»[1].

ثمّ إنّ العقل هو ميزان أحكام الله- أيضاً- وكما جاء في حديث آخر: «**إِنَّ لِلّه عَلَى النَّاسِ حُجَّتَيْنِ: حُجَّةً ظَاهِرَةً، وَحُجَّةً بَاطِنَةً، فَأَمَّا الظَّاهِرَةُ فَالرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْأَئِمَّةُ، وَأَمَّا الْبَاطِنَةُ فَالْعُقُول**»[2]. ممّا يعكس الوحدة الكاملة بين الأحكام العقلية والقيم الرسالية.

العقل والشخصيّة المتكاملة

لكي يستثير الحديث النبوي الشريف، أكبر قدر ممكن من صفات العقل وسماته وميزاته، لعلّنا نتنبه من خلالها إلى العقل ذاته، وأيضاً لكي يبيّن الحديث (الشخصية المتكاملة في منطق الإسلام) شرح الحديث لنا: أهم الصفات التي تميّز بها العاقل، وركز على الترابط الوثيق بين سجايا الخير، ذلك الترابط الذي يبرز- بدوره- مفاهيم عميقة متصلة بطبيعة الشخصية الإنسانية.

---

(١) بحار الأنوار، ج ١، العلامة المجلسي، ص ١١٩

(٢) عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، الكافي، ج١، ص٣٥.

وفيما يلي نقتبس من هذه المفاهيم من الحديث الشريف:

بين العقل والحلم:

↵ **فَتَشَعَّبَ مِنَ الْعَقْلِ الْحِلْمُ.**

إذا كان العقل عِقالاً من الجهل، وإذا كان أبرز مظاهر الجهل هو: التسرع والطيش والفوضى والانفلات، ممّا يسميه العرب بـ(الجهل)، فإنّ الحلم سيكون أبرز مظاهر العقل، لذلك ترى العرب يسمون العقل بالحلم والعقول بالحلوم، فما هو الحلم؟ ولماذا هو الابن الشرعي للعقل؟

الحلم هو السيطرة على النفس، والضبط والرزانة، والحليم هو ذلك الفرد الذي لا تتلاعب به أحداث الحياة (خيراً أو شراً)، ولا تستفزه أقوال النّاس (مدحاً أو ذماً)، ولا تدعوه أهواؤه وشهواته إلى الإسفاف، أو الرضا والغضب، أو السرور والحزن، أو الربح والخسارة، كلّ هذه تبقى عنده محدودة ضمن إطاراتها، وموجهة إلى أهدافها بدقة.

لذلك ستكون نتائج الحلم المباشرة هي -كما جاء في الحديث- (ترك ركوب الجهل)، وبالتالي ترك الطيش والانفلات و(صحبة الأبرار) لطبيعة الانسجام بينه وبينهم، ورفع من الضعة إذ لا يفقد عقله بسبب المتغيرات السارة أو المحزنة، و(رفع من الخساسة) و(تشهي الخير) والطموح الذي (يقرب صاحبه من معالي الدرجات) و(العفو) و(المهل) والأناة التي تأتي للحليم نتيجة عدم تأثره بالأحداث، و(المعروف) حيث لا يحمل قلب الحليم شيئاً من الحقد، (والصمت) إلاّ من الخير بالطبع.

بين الحلم العلم:

↵ [وتشعّبَ]... **مِنَ الْحِلْمِ الْعِلْمُ.**

هل تعلم أنّ أخطر أعداء العلم هو الغضب والشهوة؟ حيث إنّهما يوتّران الأعصاب، ويفقدان الإنسان أهم شروط التفكر السليم، وهو الاطمئنان والهدوء.

هل تعلم أنّ القلب القلق لا يمكنه أن يتفرّغ للفهم، ولا يمكنه أن يركّز في شيء، ولا يقدر على ربط الأفكار ببعضها لكي يصنع من مجموعها علماً، ولا يستطيع أن يلاحظ ترابط أحداث الحياة؟

إنّ الحلم (وهو كما قلنا سلفاً الترفع عن متغيرات الحياة) هو الأب الشرعي للعلم، لأنّه يوفّر المجال المناسب للتفكّر، ومن ثمّ للتعلّم.

والعلم- بدوره- يعطي صاحبه (غنى النفس، وسخاءها) و(مهابة الجانب) و(سلامة الروح والجسد) و(الهيمنة على الأمور عن كثب) و(الرفعة) و(الشرف) و(الحكمة) و(الحظوة) (فلا يعثر حظ مع علم) كلّ ذلك كما جاء في حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

بين العلم والرشد:

↵ [وتشعّبَ]... **مِنَ الْعِلْمِ الرُّشْدُ.**

الرّشد هو الجانب العملي من العلم، وهو التطوّر الإيجابي الذي يحدث للعالم فيجعل تصرّفاته منظّمة وحكيمة، وذات أهداف واضحة ووسائل قريبة.

بالطبع سيكون من نتائج الرشد (السداد)، و(التوفيق والوصول إلى

الهدف بسهولة) و(الهدى إلى الحق) و(التقوى) لأنّها تنشأ من العلم بعواقب الأمور، و(المنالة)، و(القصد) فلا تطرّف ولا تقصير، و(الاقتصاد في المعيشة)، و(الثواب عند الله)، و(الكرم والمعرفة بدين الله) لأنّ دين اللّه هو البرنامج الواضح للرشد أو للعلم العملي.

بين الرشد والعفاف:

↵ [وتشعّبَ]... **مِنَ الرُّشْدِ الْعَفَافُ**.

«**حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِ خَطِيئَة**»[1] والترفّع عن الدنيا رأس كلّ فضيلة، ولا يعني الترفّع عدم امتلاك الدنيا، وإنّما عدم السماح للدنيا بامتلاك الإنسان، والسيطرة الكاملة عليه، والعفاف هو ذلك الترفّع، ذلك الزهد المرغوب، ذلك الصوم الداخلي عن شهوات الدنيا.

وإذا كان الرّشد هو العلم العملي فإنّ (خلاصة) معارف الإنسان ستهديه إلى أنّه أكبر وأكرم من الدنيا، وأنّ الدنيا ليست الثمن الكافي لنفسه، فالعفاف هو أبرز صفات الرّشد، وتنبثق من العفاف (الاستكانة) و(الخضوع لله وللحق) و(الحظ والراحة والتفقه، والخشوع والتذكر) لأنّه لا ينشغل باله بالهموم، التي تستقطب اهتمام النّاس، و(التفكر والجود والسخاء).

بين العفاف والصيانة:

↵ [وتشعّبَ]... **مِنَ الْعَفَافِ الصِّيَانَةُ**.

حين يعفّ الفرد ويترفّع عن شهوات الدنيا، فإنّ النتيجة الطبيعية لعفافه

---

(١) الكافي، ج٢، ص١٣١، عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام، والكافي، ج٢، ص٣١٥، عن الإمام الصادق عليه السلام: «**رأس كلّ خطيئة حبّ الدنيا**».

ستكون صيانة نفسه وحفظها عن الأخطار. فمثلاً لا يرتكب الإثم، ولا يقترب إلى الجريمة، ولا يقوم بعمل يضرّ دينه أو دينا. ويتشعب للعاقل بالصيانة (الإصلاح، والتواضع) لأنّ التكبر يأتي نتيجة الشعور بالضعة، والعفيف الذي يصون نفسه، لا يشعر بالنقص أو الضعة، (والورع عمّا يضرّ جسمه أو روحه)، (والإنابة والفهم، والأدب والإحسان)، و(التحبّب (إلى النّاس) لكي يصون نفسه من أذاهم، (والخير إلى النّاس) حيث أنّ الإحسان إلى النّاس نوع من التأمين الإجتماعي، و(واجتناب الشر).

بين الصيانة والحياء:

↵ [وتشعّبَ]... **مِنَ الصِّيَانَةِ الْحَيَاءُ.**

حين تحترم النّاس تنتظر منهم الاحترام، وحين يصون الإنسان نفسه عن النّاس يفرض عليهم مهابته، وبالتالي يرتبط معهم بعلاقات جيدة، هذا هو الحياء.

والرجل الحَيِي ينتفع بحيائه عدة منافع هي: (اللين، والرأفة، والمراقبة للّه في السر والعلانية، والسلامة، واجتناب الشر) لأنّ كثيراً من الشر يأتي من الصلافة، والبشاشة والسماحة والظفر[1] وحسن الثناء على المرء في النّاس.

---

(١) جاء في الحديث وبتكرار كلمات مثل الحظ الحظوة والظفر، وأتصور أنّ المعنى واحد وهو ما يسميه النّاس بـ(التوفيق) أو (النصيب) أو (البركة)، مع فارق أنّ النّاس ينسبون هذه الصفات إلى أمور غيبية غير معروفة، وهذا الحديث يوضح ارتباطها بأخلاقيات يتخلّق المرء بها بوعي وإرادة وليس عبثاً وبلا إرادة.

بين الحياء والرزانة:

↵ [وتشعّبَ]... مِنَ الْحَيَاءِ الرَّزَانَةُ.

قد يتحرّك الإنسان في المجتمع وفق رؤى وأهداف يخطط لها سلفاً، وقد يتحرّك وفق ما تمليه المؤثّرات المرتجلة الآنية، والرّجل الأوّل يسمّى رزيناً، وتأتي صفة الرزانة من الحياء، لأنّ الحياء- بدوره- آتٍ من الصيانة والرّشد، وهي الصفات التي تجعل العاقل فوق مستوى الأحداث.

إنّ فريقاً من النّاس لا يمكنهم تكوين علاقات اجتماعية صائبة، إذ علاقاتهم آتية من مواقف مرتجلة وحالات نفسية غير منضبطة، بينما العاقل الذي يحتمي بحجاب من الحياء، ويحظى باحترام النّاس، يكوِّن علاقاته وفق مبادئه وحكمته، فتراه متصلباً مبدئياً، ولكنه -في الوقت ذاته- ليّن هشّ بشّ يعطي من نفسه للناس الكثير، ولكن لا يعطي من مبادئه شيئاً.

ويستفيد العاقل من (الرزانة) أموراً أبرزها: (اللطف، والحزم، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، وصدق اللسان، وتحصين الفرج، واستصلاح المال، والاستعداد للعدو، والنهي عن المنكر، وترك السفه) والسفه الأعمال غير المفيدة كاللغو، وقتل الفراغات بالتوافه.

بين الرزانة والمداومة على الخير:

↵ [وتشعّبَ]... مِنَ الرَّزَانَةِ الْمُدَاوَمَةُ عَلَى الْخَيْرِ.

لأنّ علاقات العاقل (الرزين) ناشئة من مبادئه، وغير متأثّرة بآراء المجتمع، فإنّه يتعوّد على الخير، وإذا كان الشّر عادة والخير عادة، فلماذا لا يتعوّد الإنسان على الخير؟

مـــا هو الخير؟ إنّه (ترك الفواحش والتحـــرج)، و(التقوى) و(البعد من الطيش)، إنّهـــا جميعاً خير، وينتفع العاقل بمداومتـــه على الخير (اليقين) لطبيعة تأثير العمل على الفكر، (وحب النجاة) و(طاعة الرحمن)، و(تعظيم البرهان) وهو كلّ ما فيه حجّة على الحق، (واجتناب الشيطان)، و(الإجابة للعدل وقول الحق).

بين المداومة على الخير وكراهية الشر:

↵ **[وتشعّبَ]... مِنَ الْمُدَاوَمَةِ عَلَى الْخَيْرِ كَرَاهِيَةُ الشَّرِّ.**

حين يتعوّد الإنســـان على شيء يستوحش من تركه، ومن الأعمال التي تتعارض معه، ولذلك فإنّ العاقل يستوحش من عمل الشّر، وما أفضله من فضيلة.

ويصيب العاقل عدّة حســـنات من كراهيته للشر هي: (الصبر والنصر) و(الاستقامة على المناهج) أي على الخطة المرسومة له من قبل اللّه أو من وحي رشده، و(المداومة على الرشاد)، و(الإيمان بالله)، و(الإخلاص)، و(ترك ما لا يعنيه، والمحافظة على ما ينفعه).

بين كراهية الشر وطاعة الناصح:

↵ **[وتشعّبَ]... مِنْ كَرَاهِيَةِ الشَّرِّ طَاعَةُ النَّاصِحِ.**

حين يتحذّر الإنســـان من شـــيء ويكرهه يبادر إلى الفرار منه إذا أُخبر بوجوده، فإذا كان ما يتحذّر منه إنسان هو الشّر فإنه يندفع- آلياً- إلى طاعة من ينصحه باجتنابه، إنّ هذه الطاعة لا تكون مفروضة على العاقل من فوق، بل إنّه مدفوع إليها من الداخل.

والنتائج الجيدة التي يستفيدها العاقل بطاعة الناصح هي (زيادة في الفعل وكمال اللب ومحمدة العواقب) إذ انه يجمع عقول النّاس وعلومهم إلى نفسه، (والنجاة من اللوم)، والقبول من قبل الناصح)، إذ المشورة أو طاعة الناصح تجمع النّاس حول العاقل، و(المودة والانشراح والانصاف والتقدم في الأمور)، و(المبادرة وسبق الزمن)، إذ هذا ما ينصحه الناصح عادة، و(القوة على طاعة الله) إذ يلقى التشجيع عليها.

سؤال أخير:

هذه هي الصفات التي تميّز بها العاقل، والمزيد من التدبّر فيها وفيمن يتّصف بها يدعنا نسأل هذا السؤال الأخير: هل هناك شيء أوضح من العقل أو أكثر سناءً؟ وكيف كنّا نفتّش عن مقياس يميّز بين العلم والجهل وهذا العقل موجود عندنا؟!

الثقة مفتاح العقل

النّاس سواسية في العقل، فتلك نعمة أسبغها اللّه على البشر جميعاً، إنّما يختلف النّاس في مدى استثمارهم لها، ولكن لماذا يستثمر البعض عقولهم ويتركها آخرون؟ هناك عوامل عديدة تنبع من عامل واحد أساسي هو (الشعور بالضعف). إذ إنّ هذا الشعور يفقد صاحبه الإيمان بذاته وبقدراته، وبإمكانية مقاومته الضغوط من حوله. وحين يفقد الإنسان إيمانه بنفسه لا يبقى منه إلا قشرة خاوية، إذ ما قيمة قدرة لا يعترف صاحبها بوجودها؟

مثلاً، ما قيمة ثروة يمتلكها شخص دون أن يعرف أنّها له؟ وما قيمة سلطة لا يعترف صاحبها بها؟ إنّ البشر مزوّدون بنور العقل، وبالقدرة على

كشــف الحقائق، وبإمكانية النفاذ إلى خبايا الحياة، ولكنهم لا ينتفعون بها من دون إيمان بوجودها.

لذلك ترى أنّ من تأخذهم هيبة البحث عن حقيقة معينة لا يســتطيعون كشــفها، إذ إنّهم حكموا على أنفسهم- ســلفاً- بالعجز والفشل، والذين تمتلكهم هيبة العلماء الســابقين عليهم، يســتحيل عليهم فهم أيّ شــيء جديد، إذ إنّهم لا يؤمنون بأيّ اكتشاف ذاتي يتوصلون إليه.

والأجيــال التي تعبــد جيلاً ســابقاً، وتعتقد أنّه وصل إلــى قمة العقل والمعرفة، تبقى-هذه الأجيال- في أوحال الجهل؛ لأنّها تفقد الثقة بقدرتها على فهم أيّ شيء لم يفهمه ذلك الجيل السابق[1].

ولا تكفي الثّقة بالعقل، بل يجب أن يثق الإنسان بكامل قدراته ليستطيع اســتثمار عقله؛ ذلك لأنّ ضغوط الحياة المادية تفقد الإنسان استقلاله في التفكير والسلوك، وتفقده حريته في القرار.

الســلطة الطاغية التي تســتعبد النّاس بقوة الحديد والنار، وتختار لهم ســلوكاً معيناً تفرضه عليهم، هذه السلطة تفقد الإنسان شعوره بالاستقلال والحرّية، وتجعله لا يفكر إلّا في اختيار ما يُرضي تلك السلطة.

والمجتمع المحافــظ الذي يرمي المخالفين له بأنــواع التّهم وينبذهم عن نفســه، هو الآخر يفرض على البشر نوعاً خاصّاً من التفكير والسّلوك، ويفقده حرّية القرار، وبالتالي حرّية التفكير والمعرفة.

كذلك النظام الاقتصادي الذي يسوق النّاس إلى سبل معينة، ولا يسمح لهم بتجاوزها، أمام ضغوط هذه الأغلال يتوقف الفكر ولا يستثمر العقل.

(١) بيّنا في عدة مناسبات العلاقة الوثيقة بين العلم والثقة.

ولكن، هل تُفقد هذه الضغوط حرّية الإنسان حقيقة؟ أو تجعله لا يقدر أبداً على تغيير وضعه؟ هل تسلبه إمكانية التمرّد والثورة والتضحية والإصلاح؟ كلاّ، إذ إنّ اللّه أكرم عباده بالحرّية، وأعطاهم القدرة الكافية للدفاع عنها، فالشعب المضطهد يستطيع تحطيم عرش السلطة الطاغية، والجيل التقدّمي قادر على التمرّد ضد جيل التخلّف، والمجتمع يتمكّن من تغيير النظام الذي لا يناسبه، وتطورات التاريخ شواهد على هذه الحقيقة.

الإنسان قادر على المحافظة على حريته شريطة أمر واحد هو الإيمان بذاته، والإيمان بأنّه قادر على التمرّد والثورة والتضحية والإصلاح، وله من الإمكانيات ما تحقّق ذلك، إذ القضية ليست قضية وجود إمكانيات، إنّ طاقات الإنسان لا تحدّ ولا تنتهي، إنّما هي قضية الإيمان بهذه الطاقات والثقة بها، كما أنّ القضية ليست في تطلع الإنسان إلى تحقيق الحرّية والاستقلال، إذ إنّ هذا التطلّع هو أسمى فطرة ركزها اللّه في طبيعة البشر.

ولو بلغ الإنسان الثريا لتطلّع إلى نجمة أرفع، ولو أوتي ملك الدنيا لتطلّع إلى ملك الآخرة، ولو وُهب خزائن الأرض لأمسك خشية الإنفاق وحباً في المزيد، وليس من بشر يتنازل عن حرّيته طوعاً، ولكن يكره إكراهاً يسلبه إيمانه بذاته، وثقته بقدرته على ممارسة حريته. فالقضية -إذاً- قضية ثقة، ومن هنا كان الطغاة يسعون أبداً إلى إشعار ضحاياهم من الشعوب أنّهم لا يقدرون على مقاومتهم، إذ بمجرّد هذا الشّعور يستسلم الإنسان لواقعه الفاسد فكراً وسلوكاً.

ومفتاح الأمر آنئذ في الثّقة، إذ إنّها تدفع الإنسان إلى تفجير طاقاته واستغلالها في مقاومة ضغوط الطغاة.

وإذا تخلّص الإنسان من خشية الطغاة استعاد حريته، واستثمر عقله، وملك حياته وستقلاله.

التوكّل ثقة لا تحد:

ويبقى السؤال الكبير: من أين نكتسب الثقة بالإيمان باللّه، والتوكّل عليه، وكيف؟ حين نؤمن بأنّه ربّ السماوات والأرض وربّ العالمين، وأنّ بيده ملكوت السماوات والأرض، وإليه يرجع الأمر كله، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممّن يشاء، ويعزّ من يشاء ويذلّ من يريد، وينصر عباده بالغيب، وينصر من ينصره، ويحبّ من يحبّه ويتوكّل عليه، ويعين من يستعين به.

وحين نعرف أنّ اللّه واسع لا تحد عطاه العطايا، حين نؤمن باللّه إيماناً حقيقياً[1]، ونعرف أنّ اللّه عليم حكيم، وليس بظلام للعبيد، لا يمنع ولا يعطي اعتباطاً وعبثاً، إنّما بقدر مؤهلات الفرد ذاته، وقدر إيمانه وعقله وعمله الصالح، حين ذاك تتفجر ينابيع الخير في الإنسان.

إذاً شروط التحرّر والتقدّم موجودة عند الإنسان، فالتطلّع فطرة راسخة عنده، والوسيلة لتحقيق التطلّعات موجودة عند اللّه،

---

(١) يصف الإمام علي عليه السلام ربه فيقول: «**اَلْحَمْدُ لِلَّهِ اَلَّذِي لَا يَفِرُّهُ اَلْمَنْعُ وَلَا يُكْدِيهِ اَلْإِعْطَاءُ إِذْ كُلُّ مُعْطٍ مُنْتَقِصٌ سِوَاهُ، اَلْمَلِيءِ بِفَوَائِدِ اَلنِّعَمِ وَعَوَائِدِ اَلْمَزِيدِ وَبِجُودِهِ ضَمِنَ عِيَالَةَ اَلْخَلْقِ فَأَنْهَجَ سَبِيلَ اَلطَّلَبِ لِلرَّاغِبِينَ إِلَيْهِ فَلَيْسَ بِمَا سُئِلَ أَجْوَدَ مِنْهُ بِمَا لَمْ يُسْأَلْ، وَمَا اِخْتَلَفَ عَلَيْهِ دَهْرٌ فَتَخْتَلِفَ مِنْهُ اَلْحَالُ وَلَوْ وَهَبَ مَا تَنَفَّسَتْ عَنْهُ مَعَادِنُ اَلْجِبَالِ وَضَحِكَتْ عَنْهُ أَصْدَافُ اَلْبِحَارِ مِنْ فِلِزِّ اَللُّجَيْنِ وَسَبَائِكِ اَلْعِقْيَانِ وَنَضَائِدِ اَلْمَرْجَانِ لِبَعْضِ عَبِيدِهِ لَمَا أَثَّرَ ذَلِكَ فِي جُودِهِ وَلَا أَنْفَدَ سَعَةَ مَا عِنْدَهُ وَلَكَانَ عِنْدَهُ مِنْ ذَخَائِرِ اَلْإِفْضَالِ مَا لَا يَنْفَدُهُ مَطَالِبُ اَلسُّؤَّالِ وَلَا يَخْطُرُ لِكَثْرَتِهِ عَلَى بَالٍ لِأَنَّهُ اَلْجَوَادُ اَلَّذِي لَا تَنْقُصُهُ اَلْمَوَاهِبُ وَلَا يُبْخِلُهُ إِلْحَاحُ اَلْمُلِحِّينَ**». (التوحيد، ص ٨٤).

والشـــرط الذي يحقق الوســـيلة موجود عند الإنســـان، وهو الإيمان و ا لعمل .

من هنا نعلم أنّ التوكّل على اللّه يعطينا الثقة بمواهبه فينا، وبنعمه علينا، وبالتالي بقدرتنا على مقاومة الضغوط أيّاً كان نوعها.

ضغوط الجبت من هوى وشهوات

القرآن الكريم-وهو كتاب العقل والحرّية- لا يأمر بالتوكّل فحســـب، بـــل ويقصّ علينا عبراً من حياة المتوكّلين على اللّه، الذين قاوموا -بسلاح التوكّل- ضغوط الجاهلية والطاغوت -من سلطة متجبّرة أو مجتمع فاسد أو مصلحة آنيـــة- فانتصروا عليها، وبيَّن القرآن مـــن خلال هذه القصص حقيقة أخرى، هي أنّ الحرّية وحدة لا تتجزّأ، فليس هناك حرّية فكرية دون حرّية سياســـية، ولا حرّية علمية دون حرّية اقتصادية، ولا حرّية دينية دون حرّية اجتماعية.

وحين يُنال مـــن حرّية في حقل، فإنّ مســـتوى الحرية يهبط في ســـائر الحقول أيضاً، وحين أرادت رســـالات اللّه الحرّية للإنسان لم تجزّئها إلى حرّية دون حرّية، بل تحدّثت عنها واحدة واحدة وسعت إلى ترسيخها في فطرة البشر جميعاً[1].

إنّما جعلت رســـالات الله حرّية الفكر باباً لســـائر الحريات، وجعلت مفتاحه الثقة باللّه والتوكّل عليه.

---

(١) المنطق الإسلامي، ص: ١٨١.

نصوص إسلامية في التوكّل:

دعنا نتلو القرآن لنتدبّر في آيات التوكّل.

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾[1].

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[2].

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ يونس، وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ،،... رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[3].

ثمّ قال ربنا في نهاية القصة: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾[4].

إنّ عشرات العبر يقصّها علينا القرآن الحكيم من حياة المؤمنين الذين حافظوا على حريتهم ضد الطغاة، وهي جميعاً تسير في خط واحد هو:

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٨-٨٩.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٩١.
(٣) سورة يونس، الآية: ٨٣- ٨٦.
(٤) سورة يونس، الآية: ٩٣.

١- الإيمان باللّه، والتوكّل عليه، والصبر على الشدائد[١].

٢- مقاومة الطغاة بعنف.

٣- الانتصار عليهم انتصاراً نهائياً.

ومن هذا المنطلق يأمرنا ربّنا بالتوكّل في عشرات الآيات ليزيل هاجس الخوف من فؤاد الإنسان، ويطلق قواه لمقاومة الظالمين، والمحافظة على حرّيته الكاملة، وفيما يلي نثبت بعض الآيات:

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[٢].

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[٣]

﴿وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[٤].

﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[٥].

---

(١) المنطق الإسلامي، ص: ١٨٢.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٥١.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٤) سورة المجادلة، الآية: ١٠.

(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٤٨.

خلاصة القول

لا يستثمر العقل إلّا بالثقة، والثقة بالذات، والإيمان بالحرّية، وبالقدرة على المحافظة بها، ولكن هذه الصفات لا توجد إلّا بالتوكّل على اللّه لأنّه مفتاح الثقة، وشرط لاستثمار الإنسان عقله[1].

(١) يقول الإمام علي عليه السلام في وصيته لابنه الحسن عليه السلام: «فليكن طلبك لذلك بتفهّم وتعلّم لا بتورّط الشبهات وعلو الخصومات، وابدأ قبل نظرك في ذلك بالاستعانة بإلهك عليك والرغبة إليه في توفيقك». (بحار الأنوار، ج ٧٧، ص ٢٠٢).

2

شرح وصايا
الإمام الكاظم عليه السلام لهشام
حول العقل

وصايا الإمام الكاظم عليه السلام لهشام حول العقل

تمهيد

ماذا يهديك إلى النور؟ أليس النور ذاته؟ كذلك عقلك يهديك إلى ذاته، وهل يبصر أحدنا عينه بغير عينه؟ فيجب إذاً أن لا نبحث في الظلمات عن النور، لأنّنا لن نجده هنالك، بل سوف نزداد عنه ضلالاً.

كذلك ضلَّ أكثر النّاس عن العقول، فلم ينتفعوا بهذا الموهبة الإلهية إلّا قليلاً، وترى بعضهم ينكر عقله أساساً، ويحتجُّ على إنكاره ببعض الحجج، ولا يدري أنّ احتجاجه ذاته دليله إلى عقله. وكيف يتسنىّ لمن لا عقل له أنْ يكون منطقّياً ويحتجّ على شيء بشيء؟

العقل يكشف ذاته بذاته، ولا يحتاج أحدنا إلّا إلى التذكرة به واستثارته، كالمصباح الذي رانت عليه الأوساخ يكفيك أنْ تنظّفه لتراه ثمّ ترى الأشياء به!.

والمناهج العلمية المختلفة سبل العقل إلى الحقائق، والعقل هو الذي عرفها واستفاد منها، ولكنه لا يتقَّيد بها، وأنّى له التقيُّد بها وهو الذي كشفها لنا، وحدّد معالمها وأمرنا باتّباعها للوصول إلى الحقائق؟ وهكذا

تجد العقل البشـــري لم يتقيّد بمنهج أرسطو في المنطق، بل ابتدع عشرات المناهـــج الأخرى، كالمناهـــج الرياضية المتطـــورة، والمناهج التجريبية المختلفة[1].

كما أنّ الأذكياء من النّاس قد يتجاوزون كلّ المناهج، ويتركون المجال لعقولهم أنْ تنطلق في رحاب الحقيقة، حتـــى يظنّ البعض أنّهم مُلْهَمون، وليسوا بمُلْهَمين ولكنّهم يجوبون آفاق الحقائق بلا قيود.

ولهذا فإنّ تحديد العقل بأنّه يدرك الكلّيات ولا شأن له بالأمور الجزئيّة، أو أنّه لا يدرك شيئاً إلاّ من خلال مناهج خاصة، هو نوع من خسارة لموهبة العقل.

إنّك تبصر بعينك الجبل الأشـــم، كما تبصر سمّ الخياط، وتضيء أشعة الشـــمس صحراء واســـعة، كما تضيء كوخاً صغيراً! وتفقـــه بعقلك قبح الظلم، وحسن الإحسان، كما تفقه كيفية فتح باب مغلق.

العقل موهبة عظيمة، وغفلة الإنســـان عنها هي المســـؤولة عن ضلاله وجهله، كما لو سدّ الإنسان نافذته عن الشمس، أو سد عينه، أفيرى شيئاً؟!

وهكذا تكون الثقة بالعقل مفتاح المعارف، لأنّ مَنْ يشكّ في عقله يغفل عنه، ويهمل الانتفاع به.

والثقة بالعقل، تعني اكتشاف الإنسان لذاته، لأنّ عقل الإنسان أعظم ما فيه، وهو يرفد كلّ كمال وجمال!.

والمنهج الســـليم لإعادة الثقة بالعقل -بعد التذكـــرة به- التعرُّف على

---

(١) قـد أوضحنـا فـي كتـاب (المنطق الإسـلامي: أصولـه ومناهجـه) العديد مـن المناهج القديمـة والحديثة فـي المنطق.

الحقائــق التي لا تحصى التي تعرَّفنا عليها بالعقل، وقياس أنفســنا بمن لا عقــل له، وقياس ذوي العقول بغيرهم. أليس من يعيش في صحراء مضاءة بنور الشــمس لا ظلّ فيها ولا ظلام قد يغفل عن مصــدر النور، ويظنّ أنّ النور حالة طبيعية في ذرات التراب؟ فإذا غابت الشمس هنالك يعرف قيمة الشمس.

وحين نتدبَّر في القرآن والسنَّة نجد أنّ هذا هو المنهج الذي اتّبع فيهما، سواءً في التذكرة بالعقل أو بتنمية ثقة الإنسان به.

والعقل هــو ذلك النور الذي نُميَّز به الخير عن الشــر، والحســن عن القبيح، وحينما ينحسر عنا عند الغضب والشهوة العارمَيْن نرتكب القبائح ثمّ نلوم أنفســنا عندما يعود، وهــو الذي نفقده عند الصغــار والمجانين والحمقى فنرى فيهم نقصاً كبيراً، وهو الذي يحاسب النّاس بعضهم بعضاً على أساسه ويحمَّلونهم به مسؤولية أفعالهم، وهكذا يصف الإسلام العقل بصفاته التي تتجلَّى في العقلاء.

والوحــي إثارةٌ للعقل وتذكرة به، وقد خلقه اللّه من نورٍ مخزونٍ مكنونٍ عنده فأكرمه وحمّله المسؤولية حين قال له: بك أُثيب وبك أُعاقب.

وقد فصّل قادة الإسلام القول في العقل، كما فعل الإمام الكاظم عليه السلام في وصيتــه الحكيمة، حيث بيّن فيها دوره في تلقّــي الحقائق من الوحي، وبيّن كيف أنّه يكتمل بالعلم والخُلُق الفاضل، وأنّه حجة اللّه ورســوله في الباطن، وأنّه لا يختلف عن الوحي شيئاً.

وقد أخطأ بعض الفلاســفة حين زعموا أنّ العقــل مجموعة تصورات أو أحكام قاطعة وبديهية عند الإنســان، ذلك لأنّ تلك الأحكام ما هي إلّا

مكشوفات لنور العقل، وإنّ نور العقل كما يكشفها يكشف غيرها.

ويختلف العقل والعلم عن القطع، حيث إنّ الثاني ليس سوى دفع الاحتمالات حتى لا يبقى إلّا واحد منها؛ بينما العلم كشف الحقيقة للنفس حتى تطمئن إليها!. وحجية العلم ذاتية، بينما حجية القطع ليست ذاتية، فإذا كان عن طريق عقلائي لم يردع عنه الشرع، أخذنا به، وإلّا فلا.

والعقل قد يغطُّ في سبات، وعلاجه إيقاظه بإثارته. وقد ينكسف شعاعه بسُحب الهوى، فلا بدّ من ردع النفس عن اتباع الهوى وشحذ عزيمتها لمواجهة الأهواء.

وقد تختلط وساوس الشيطان وهواجس النفس وتسوّلاتها بالعقل وأحكامه، فلا بدّ من تجلية العقل بالتذكرة بها، وببيان شواهده وجنوده وصفات الذين يتحلَّون به، وكذلك ببيان الجهل وشواهده وجنوده وصفات المبتلين به.

وسوف نناقش طويلاً الآراء التي ذكرت في موضوع علاقة الوحي بالشرع، وهل أنّ العقل يستقلّ بفَهْم الأحكام الشرعية؟

وصفوة القول تتلخّص في أمور:

١- إنّ القطع الذي اعتبره البعض حجّة ذاتية ليس كذلك، إنّما هو قد يكون طريقاً عقلائياً، وقد ردعت عن بعض مفرداته الشريعة الغراء، كقطع القطّاع، والقطع الذي مصدره القياسات الباطلة أو الجفر والرمل وسائر المصادر غير المعترف بها عند العقلاء، وهذا رأي كبار فقهائنا (قدّس اللّه أرواحهم).

٢- وإنّ العقل يستقلُّ بمعرفة الحسن والقبح، ولكنه بحاجة إلى الوحي،

لتزكية النفس، وتنمية الإرادة فيها، وتجلية العقل وإثارة دفائنه.

٣- إنَّ الوحي قد بيَّـن لنا كلّ ما نحتاجه من الأحكام في صيغة أصول، وهي الأحكام العقلية التي يجمع العقلاء على قواعدها العامة.

٤- وظيفة العقل التعرُّف على الوحـي وفهمه ومعرفة حَمَلَته، ومعرفة كيفيـة تطبيقه على الحقائـق الفرعية. وبكلمة: العقل والوحي شـعاعان لمصباحٍ واحد، وبدون تكاملهما، لا يتكامل البشر، لذلك لا يجوز القياس في الدين، ولا الاستغناء عن النصوص.

العقل في بصائر الوحي

ما هو العقل؟

إذا عرضنا هذا السؤال على اللغة لبادرنا القاموس بالقول: نور روحاني تدرك به النفس العلوم الضرورية والنظرية.

وإذا عرضنـاه على العرف لكانـت إجابته أكثر بسـاطة حيث يصفونه بشـواهده، يقولون مثلاً: هـو الذي يعلّمنا كيف نعيش، ومـا ينبغي لنا أنْ نفعله، وما لا ينبغي.

وإذا سألتهم عن العقلاء لسردوا لك مجموعةً من صفات الكمال.

ولكن ذلك لا يجدينا نفعاً إذا لم يكتشف كلّ واحد منا بنفسه نور العقل وهنا اذاً نتساءل: بالتأكيد لم نكن نعرف الخير من الشر والحسن من القبيح عند الطفولة، ولكنّا اليـوم نعرف ذلك جيداً، فما هو هذا النور الذي عرفنا ذلك به؟

عند الغضب والشـهوة الجامحين نرتكب أفعالاً ثمّ نلوم أنفسنا عليها،

فما الذي كنا نفقده عندئذٍ ثمّ وجدناه فقيّمنا به؟

وعندما نحاسب الآخرين نستطيع أنْ نميّز بسهولةٍ بالغة بين الحسن والقبيح من أفعالهم، وبين المحسن والمسيء منهم، وأنىّ ذهبنا في هذا العالم الرحيب نجد أصول الصفات الحميدة واحدة، فالكلّ يتغنَّى بالعدل والإحسان والإنفاق والإيثار، والكلّ يستنكر الظلم والعدوان والبغي والاستئثار.

فمن خلال التنبّه الذاتي ومراجعة أنفسنا كيف عرفنا الحقائق الأولية، وكيف نوقن بها ونستريح إليها بلا أيّ ريبٍ أو تردّد، من خلال ذلك يتجلّى لنا نور العقل من داخل أنفسنا.

وكلمات القرآن والنبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة عليهم السلام في العقل جرت حسب هذا السياق، فعرّفوا العقل بآياته وبصفات الذين يتحلّون به، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

«العقل عقالُ من الجهل، والنفس مثل أخبث الدوابّ»[1].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم:

«قسّم العقل على ثلاثة أجزاء، فمَنْ كانت فيه كمل عقله، ومَنْ لم تكن فيه فلا عقل له: حسن المعرفة باللّه عزّ وجلّ، وحسن الطاعة له، وحسن الصبر على أمره»[2].

وروي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً أنّه قال:

«صفة العاقل أنْ يحلم عمّن جهل عليه، ويتجاوز عمّن ظلمه، ويتواضع

(١) تحف العقول، ص ١٩.
(٢) بحار الأنوار، ج١، ص ١٠٦.

لمن هو دونه، ويسابق مَنْ فوقه في طلب البرّ، وإذا أراد أنْ يتكلّم تدبّر، فإنْ كان خيراً تكلّم فغَنِم، وإذا كان شرّاً سكت فسلم، وإذا عرضت له فتنة استعصم بالله وأمسك يده ولسانه، وإذا رأى فضيلةً انتهز بها، لا يفارقه الحياء، ولا يبدو منه الحرص، فتلك عشر خصال يُعرَف به العاقل».

وأضاف صلى الله عليه وآله وسلم في بيان صفة الجاهل ممّا يعاكس العاقل، وقال:

«وصفة الجاهل أنْ يظلم مَنْ خالطه، ويتعدّى على مَنْ هو دونه»[1].

وروي عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال عن العقل:

«التجرُّع للغصّة، ومداهنة الأعداء، ومداراة الأصدقاء»[2].

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد سُئل: ما العقل؟ فقال: **«العمل بطاعة اللّه، وإنّ العمّال بطاعة اللّه هم العقلاء»**[3].

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام:

«كمالُ العقل في ثلاث: التواضع للّه، وحسن اليقين، والصمت إلّا من خير»[4].

وروي عنه عليه السلام قوله:

«إذا أردتَ أنْ تختبر عقل الرجل في مجلسٍ واحدٍ فحدّثه في خلال حديثك بما لا يكون، فإنْ أنكر فهو عاقل، وإنْ صدّقه فهو أحمق»[5].

---

(١) بحار الأنوار، ج١، ص ١٢٩.
(٢) بحار الأنوار، ج١، ص ١٣٠.
(٣) بحار الأنوار، ج١، ص ١٣١.
(٤) بحار الأنوار، ج١، ص ١٣١.
(٥) بحار الأنوار، ج١، ص ١٣١.

وجاء عنه عليه السلام أيضاً أنّه قال:

«يستدلّ بكتاب الرجل على عقله وموضع بصيرته، وبرسوله على فهمه وفطنته»[١].

وعنه عليه السلام:

«دعامة الإنسان العقل، ومن العقل الفطنة والفهم والحفظ والعلم، فإذا كان تأييد عقله من النور كان عالماً حافظاً زكيّا فطنّا فهماً، وبالعقل يكمل، وهو دليله ومبصره ومفتاح أمره»[٢].

ولأنّ الهدف الأسمى لكتاب اللّه هداية الإنسان، ولأنّ سبب الهداية ووسيلتها القريبة إثارة العقل من داخل أنفسنا، فإنّ الكتاب كان تذكرة، وقد استفاضت آيات الكتاب بهذه الكلمة الجامعة وبصيغ شتّى لأنّها تعبّر بدقة عن تلك الحاجة الأساسية للإنسان، ألا وهي استثارة العقل، وإيقاظه.

قال ربناُّ: **﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾** [٣].

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٤].

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾[٥].

---

(١) بحار الأنوار، ج١، ص ١٣٠.
(٢) بحار الأنوار، ج١، ص ٩٠.
(٣) سورة القمر، الآية: ١٧.
(٤) سورة الدخان، الآية: ٥٨.
(٥) سورة ق، الآية: ٤٥.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[١].

وبما أنّ القرآن إيقاظ للعقل من سباته وإثارة وذكر فإنّه يفيض على القلب يقيناً لا ريب فيه، وهدىً وسكينة، لأنّه يوقظ العقل ويستثير كوامنه ويحفّز قدراته، فإذا استيقظ العقل لامس الحقائق بلا حجاب، وإذا استثيرت كوامنه أحاطت بالمعارف بلا ريب أو تردّد، وإذا انبعثت قدراته الكبيرة جابت آفاق العلم بلا قيود.

قال الله: ﴿الم، ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾[٣] وقد تواترت كلمات الذكر لتنفض غبار السهو والغفلة عن الأفئدة مثل قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٤]، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[٥]، ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾[٦]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾[٧]، ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ﴾[٨].

ونجد في السنة الشريفة تذكرة بالعقل وبدوره، حيث يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «قوام المرء عقله، ولا دين لمن لا عقل له»[٩].

---

(١) سورة ق، الآية: ٣٧.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١-٢.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٧٤.
(٤) سورة يوسف، الآية: ١٠٩.
(٥) سورة هود، الآية: ٢٤.
(٦) سورة السجدة، الآية:٢٧.
(٧) سورة محمد، الآية: ٢٤.
(٨) سورة البقرة، الآية: ٧٧.
(٩) المصدر/ ص ٩٤.

«استرشدوا العقل ترشدوا، ولا تعصوه فتندموا»[١].

«يا علي لا فقر أشدّ من الجهل، ولا مال أعود من العقل»[٢].

وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وهو يصف الأنبياء ومناهجهم:

«ويثيروا لهم دفائن العقول»[٣].

وقال عليه السلام: **«أغنى الغنى العقل»**[٤].

وقال عليه السلام: **«العقول أئمّة الأفكار»**[٥].

وقال الإمام الباقر عليه السلام:

«إنّما يُداقُّ اللّه العباد في الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا»[٦].

وعن صفة العقل، وكيف خلقه اللّه من نور بهيّ يقول النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم:

«خلق اللّه العقل من نورٍ مخزونٍ مكنونٍ في سابق علمه، الذي لم يَطّلع عليه نبّي مرسل، ولا ملك مقَرَّب، فجعل العلم نفسه، والفهم روحه، والزهد رأسه، والحياء عينه، والحكمة لسانه، والرأفة همّه، والرحمة قلبه، ثمّ حشاه وقوّاه بعشرة: باليقين والإيمان والصدق والسكينة والاخلاص والرفق والعطية والقنوع والتسليم والشكر، ثمّ قال عز وجل: أدبر، فأدبر،

---

(١) المصدر/ ص ٩٦.
(٢) تحف العقول/ ص ١٣.
(٣) نهج البلاغة/ خطبة ١ ص ٤٣.
(٤) بحار الانوار/ ج ١ ص ٩٥.
(٥) المصدر/ ص ٩٦.
(٦) بحار الأنوار/ ج ١/ ص ١٠٦.

ثمّ قال له: أقبل، فأقبل، ثمّ قال: تكلّمْ، فقال: الحمد لله الذي ليس له ضدّ ولا ندّ ولا شبيه ولا كفو ولا عديل ولا مثل، الذي كلّ شيء لعظمته خاضع ذليل، فقال الربّ تبارك وتعالى: وعزّتي وجلالي ما خلقتُ خلقاً أحسن منك ولا أطوع لي منك ولا أشرف منك ولا أعزّ منكَ، بك أُحَّد وبك أُعبد وبك أُدعى وبك أُرتجى وبك أُبتغى وبك أُخاف وبك أُحذر وبك الثواب وبك العقاب، فخرّ العقل عند ذلك ساجداً وكان في سجوده ألف عام، فقال الربّ تبارك وتعالى: ارفع رأسك، وسَلْ تُعط، واشفَعْ تشفّع، فرفع العقل رأسه فقال: إلهي أسألك أنْ تشفّعني فيمن خلقتني فيه، فقال اللّه جلّ جلاله: أُشهدكم أنّي قد شفّعته فيمن خلقته فيه»[1].

الإمام الكاظم عليه السلام يصف العقل

في وصيته الرشيدة يفصّل الإمام موسى بن جعفر عليه السلام لهشام بن الحكم الذي هو من أعظم أصحابه، وأعرفهم بالحكمة الإلهية وأوسعهم اطّلاعاً على المذاهب المختلفة؛ يفصّل القول في العقل، ويستشهد بآيات الكتاب في بيان دوره في معرفة الدين بالمنهج التالي:

بيان دور العقل الأساسي في تلقّي الحقائق، وأنّ الوحي جاء مكمّلاً له عبر وسائل شتّى، كالترغيب في الآخرة والتحذير من الدنيا ومن عذاب اللّه فيها، وأنّ العقل يكتمل بالعلم، وأنّ اللّه ذمّ الذين لا يعقلون، وذمّ اتّباع النّاس بلا هدىً.

ومضى الإمام عليه السلام في وصيته الهادفة إلى تكميل العقل ببيان دور التواضع للحق والتفكُّر في تنمية العقل.

---

(١) المصدر/ ص ١٠٧.

ثمّ بيّن أنّ العقل حجة باطنة، وذكَّر به من خلال التذكرة بصفات العاقل؛ من مخالفة الهوى، وتزكية النفس من الرياء والفخر ومن الثقة بأحكامه دون النظر إلى ما يقوله النّاس.

وبيّن دور العقل في طاعة أحكام الدين، ومضى الإمام عليه السلام في بيان كيفية تنمية موهبة العقل.

الله تعالى يبشّر العقلاء

لكي يستثير الإمام عليه السلام العقل، يتلو على هشام في أول وصيته الآية القرآنية التي تبشّر أهل العقل، وتصفهم بأنّهم عباد اللّه الذين هداهم ربهم.

وإذا عرفنا أنّ العقل يُعْرَف بنفسه، لأنّه النور الإلهي الذي يكشف للإنسان حقائق العلم فكيف يعرّفه غيره؟ أَوَيكون شيء أظهر من النور؟!

إذا عرفنا ذلك فإنّنا نعرف أهمية التذكرة، حيث إنّها تقوم بدور تنوير دفائن العقل، كما تحرّك فارة المسك حتى تتضوّع.

وحديث الإمام عليه السلام يقوم بهذا الدور، خصوصاً إذا قرأنا السياق القرآني قبل الآية حيث ينهى ربنّا عن اتّباع الطاغوت، ويأمر باجتنابه، والابتعاد عن إطار تأثيره الثقافي. يقول الإمام عليه السلام: إن اللّه تبارك وتعالى بشَّر أهل العقل والفهم في كتابه، فقال: ﴿**فَبَشِّرْ عِبَادِ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ**﴾[1].

ويتساءل البعض: من أين عرفنا أنّ الآية تبشّر أهل العقل والفهم؟ يبدو ذلك من أمرين:

---

(١) سورة الزمر، الآية: ١٧ – ١٨.

أوّلاً: أنّ هؤلاء لا يأخذون الكلام على علاّته، ولا يرفضونه تماماً، وإنّما يختارون الأحسن منه. وهل يختار الإنسان الأحسن إلاَّ بمعيارٍ عقلي؟

ثانيـاً: أنّ هؤلاء هم أُولو الألباب، ولبّ الإنسـان عقله، وأصله فهمه. وكلمة أخيرة: إذا كانت من أعظم صفات المؤمنين التي يبشـرهم اللّه بها صفة العقل واختيـار الكلام الأفضل، فإنّ معنى ذلك أنّ ربَّنا سـبحانه لا يطالب عباده بالاتّباع المطلق للنص الذي يسـتمع إليه، بل الاتباع الواعي، وانتخاب ما يناسب كلّ فرد في زمانه وحسب ظروفه ومستواه.

الوحي يكمل العقل

ويمضي الإمام عليه السلام فـي بيان علاقة الوحي بالعقـل، وكيف أنّ دور الأول تكميل الثاني، والاعتماد عليه في أصل الدين وهو توحيد اللّه. وإنّ ذلك ليدلّ على دور العقل في سائر نواحي الشريعة الفطرية.

يقول الإمام عليه السلام [1]:

«يا هشـام بن الحكم! إنّ اللّه عزّ وجـلّ أَكْمَلَ للناس الحُجَج بالعقول، وأفضى إليهم بالبيان، ودلّهم على ربوبيته بالأدلّة فقال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ * إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّـمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2]».

«يا هشـام، قد جعل اللّه عزّ وجلّ دليلاً على معرفته بأنّ لهم مدبراً فقال:

(١) تحف العقول، وصيّته عليه السلام لهشام وصفته للعقل، ص ٣٨٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٣- ١٦٤.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[١] وقال: ﴿حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٢] وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٣]».

كيف كمل الوحي عقل الإنسان؟

حسبما أفهمه من سياق وصية الإمام عليه السلام فإنّ اللّه سبحانه أكمل بوحيه عقل الإنسان بعدة سبل:

أوّلًا: لأنّ عدو العقل الهوى، ولأنّ جماح الهوى لا يُكبح بشيء مثل الترغيب في الحياة الآخرة، فانّ أفضل معينٍ للعقل التذكيرُ بأنّ الدنيا حياة زائلة، وما هي إلّا لعب ولهو، وأنّ الآخرة هي الحيوان.

وهذا دأب القرآن الكريم؛ الوعظ والترغيب في الحياة الأبدية، لعلّ عواصف الشهوات والعصبيات تتراجع، فيشرع العقل بتقييم كلّ شيء بموضوعية وبلا تحيّز أو تطرُّف.

وما تلاه الإمام الكاظم عليه السلام على مسامع هشام من آيات في هذا الحقل أمثلة يفيض القرآن بأمثالها حيث يقول الإمام:

«**يا هشام! ثمّ وعظ -ربّنا سبحانه- أهل العقل ورغّبهم في الآخرة فقال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا**

(١) سورة النحل، الآية: ١٢.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ١ - ٣.
(٣) سورة الروم، الآية: ٢٤.

تَعْقِلُونَ﴾[١]، وقال ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾»[٢].

ثانياً: ولذات السبب السابق -أي لكي تصفو النفس من غبار الهوى وقتار الغضب- يخوّف القرآن الذين لا يعقلون بعذاب الدنيا، ويذكّرهم بمصير الغابرين الذين دمَّر اللّه عليهم حضاراتهم القائمة على البغي والطغيان.

والقرآن الكريم يفيض بعبر الغابرين، وبأنّ دمارهم كان بسبب تركهم فطرة عقولهم التي ذُكّروا بها، وكان في ذلك دعوة لهم بالعودة إلى عقولهم من جهة، وبالخروج من أسر الهوى (عدو العقل) من جهة ثانية.

وقال الإمام عليه السلام: «**يا هشام! ثمّ خوّف الذين لا يعقلون عذابه فقال عزّ وجلّ**: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ * وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٣]».

ثالثاً: العقل كُتلة نور إذا انبسطت على أرجاء الخليقة وكشفت الحقائق فيها سُمّيت علماً ومعرفةً، وتفاعل الإنسان معها أكثر فأكثر، وكذلك كان العلم وزير العقل، بل كان نفسه وروحه.

والقرآن الحكيم ذكّرنا بدور العلم في تنمية العقل وتكميله في أكثر من آية، ولكنّ الإمام الكاظم عليه السلام يتلو علينا آية واحدة للمثل -وكفى بها مثلاً- فيقول: «**يا هشام! ثّم بيّن -ربّنا سبحانه- أنّ العقل مع العلم، فقال**: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[٤]».

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٢.

(٢) سورة القصص، الآية: ٦٠.

(٣) سورة الصافات، الآية: ١٣٦- ١٣٨

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٤٢.

رابعاً: لكي يستخدم الإنسان عقله ويستنير بنوره في حياته العملية، فهو بحاجة إلى إرادة، والقرآن ينّمي هذه الإرادة عند الإنسان بسبل مختلفة، منها: ذمّ الذين لا يعقلون، وبيان أنّهم لا قيمة لهم حتى لو كانوا من آبائنا الأوّلين، بل إنّهم شرّ الدوابّ عند اللّه، لأنّ أيّة دابّةٍ خلقها اللّه تستخدم كلّ مواهب اللّه لها، بينما الإنسان لا يستخدم عقله وهو أعظم موهبة.

وفي كتاب ربّنا آيات كثيرة في هذا الاتّجاه، منها ما يسوقه الإمام الكاظم عليه السلام لصاحبه هشام مثلاً فيقول:

«يا هشام! ثمّ ذمّ الذين لا يعقلون، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.[1].

خامساً: ولأنّ من أعظم المؤثّرات على العقل البشري اتباع النّاس، والخشية من مخالفتهم -ما يسمى في العلوم الحديثة بحس (التوافق الاجتماعي- فإنّ الإسلام يحصّن الإنسان من هذا المؤثّر السلبي بذمّ الكثرة لكي لا تصبح -أبداً- مقياس الحق عند الإنسان.

يتلو الإمام الكاظم عليه السلام آيات مباركات في هذا السياق ويقول:

«ثمّ ذمّ -ربّنا سبحانه- الكثرة فقال: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾[2]**، وقال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾**[3]**»**.

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٢٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٣٧. وهناك آية تقول: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ سورة العنكبوت، الآية: ٦٣. وآية أخرى تقول: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ سورة المائدة، الآية: ١٠٢.

«ثمّ مدح القلّة، فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[١]، وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾[٢]، وقال: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[٣]».

سادساً: من أجل تشجيع الإنسان على التفكّر والانتفاع بعقله، ذكّر ربّ العزّة العاقل بأحسن الذكر، وحلاّه بأحسن الحِلْية، وبيّن أنّ جماع صفات الخير وجملة حسنات البشر تتمثّل في التعقل، وإلى ذلك أشار الإمام الكاظم عليه السلام بقوله:

«ثمّ ذكّر أُولي الألباب بأحسن الذكر، وحلاّهم بأحسن الحِلْية، فقال: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[٤]».

«يا هشام! إنّ اللّه يقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[٥] يعني العَقل. وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾[٦] الفَهْمُ والعَقل».

سابعاً: ويمضي الإمام عليه السلام قدماً في بيان المنهجية المناسبة لتنمية العقل، لكي يشعّ نوره على أرجاء الخليقة فيضيء حقائقها، ومن ذلك التواضع للحقّ، لأنّ التكبرّ عليه لا يدع الإنسان يبحث عنه ليجده، ولأنّ هوى الإنسان يمنعه عن فَهْم الحقيقة التي تخالفه، هكذا يقول الإمام:

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٢.
(٢) سورة ص، الآية: ٢٣.
(٣) سورة هود، الآية: ٤٠.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩
(٥) سورة ق، الآية: ٣٦
(٦) سورة لقمان، الآية: ١٢.

«يَا هِشَــامُ! إِنَّ لُقْمَانَ قَالَ لِابْنِهِ: تَوَاضَعْ لِلْحَقِّ تَكُــنْ أَعْقَلَ اَلنَّاسِ، وَإِنَّ اَلْكَيِّسَ لَدَى اَلْحَقِّ يَسِيرٌ. يَا بُنَيَّ إِنَّ اَلدُّنْيَا بَحْرٌ عَمِيقٌ قَدْ غَرِقَ فِيهَا عَالَمٌ كَثِيرٌ فَلْتَكُنْ سَفِينَتُكَ فِيهَا تَقْوَى اَللَّهِ، وَحَشْوُهَا اَلْإِيمَانَ، وَشِرَاعُهَا اَلتَّوَكُّلَ، وَقَيِّمُهَا اَلْعَقْلَ، وَدَلِيلُهَا اَلْعِلْمَ، وَسُكَّانُهَا اَلصَّبْرَ».

ثامناً: لأنّ العقل نور مركّز فلا بد من بَسْطه بالتفكّر، لأن التفكّر هو إثارة كوامن العقل، واســتخدام ضيائه في إنارة الظلام، وهكذا كان التفكّر دليل العاقل، قال الإمام عليه السلام:

«يَا هِشَــامُ! إِنَّ لِكُلِّ شَــيْءٍ دَلِيلًا، وَدَلِيلَ اَلْعَقْلِ اَلتَّفَكُّــرُ، وَدَلِيلَ اَلتَّفَكُّرِ اَلصَّمْتُ، وَلِكُلِّ شَــيْءٍ مَطِيَّةً، وَمَطِيَّةَ اَلْعَقْــلِ اَلتَّوَاضُعُ، وَكَفَى بِكَ جَهْلًا أَنْ تَرْكَبَ مَا نُهِيتَ عَنْهُ».

تاســعاً: التفكّر صعب على البشر مستصعب، وإذا رأيت المتفكّرين في النّاس هم الأقليــة فلأنّ الجهل هو الطبيعة الأولى عند البشــر، ومقاومته ليست سهلة.

ومن أســباب صعوبة التفكّر: خشــية الإنســان من الآخرين، ونزوعه للتوافق معهم، ممّا يزلزل ثقته بنفســه، مــن هنا حذّر الإمام عليه السلام من هذه الحالة، وقال: «يَا هِشَامُ! لَوْ كَانَ فِي يَدِكَ جَوْزَةٌ وَقَالَ اَلنَّاسُ: فِي يَدِكَ لُؤْلُؤَةٌ، مَــا كَانَ يَنْفَعُكَ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهَا جَوْزَةٌ، وَلَوْ كَانَ فِي يَدِكَ لُؤْلُؤَةٌ وَقَالَ اَلنَّاسُ: إِنَّهَا جَوْزَةٌ، مَا ضَرَّكَ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهَا لُؤْلُؤَةٌ».

حجّة ظاهرة وحجّة باطنة

وعــاد الإمام عليه السلام إلى بيان العلاقة الوثيقة بين العقل والوحي ببيان أنَّ الهدف الأساس لبعث الرســل تكميل عقول النّاس، وكلّما عَقَلَ الإنسان

عن ربّــه أكثر عَلِمَ أمر اللّه بصورة أحســن، وأرفع النّــاس درجةً عند اللّه أكملهم عقلاً.

«يَا هِشَــامُ! مَا بَعَثَ اَللَّهُ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُــلَهُ إِلَى عِبَــادِهِ إِلَّا لِيَعْقِلُوا عَنِ اَللَّهِ، فَأَحْسَنُهُمُ اِسْتِجَابَةً أَحْسَــنُهُمْ مَعْرِفَةً لِلَّهِ، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اَللَّهِ أَحْسَنُهُمْ عَقْلاً، وَأَعْقَلُهُمْ أَرْفَعُهُمْ دَرَجَةً فِي اَلدُّنْيَا وَاَلْآخِرَةِ».

وكما يبدو فإنّ أعدى أعداء العقل الجهل المركّب، وهو حالة طبيعية في كلّ أبناء آدم، حيث يزعمون أنّهم يعرفون كلّ شيء لجهلهم بحدود أنفسهم الضيّقة وبآفاق الحقائق الواسعة. وإنّ جذر هذه الصفة الاستكبار وعلاجها التواضع. وهكذا عاد الإمام الكاظم عليه السلام يذكّر بأهمية التواضع ويقول:

«يَا هِشَــامُ! مَا مِنْ عَبْدٍ إِلَّا وَمَلَكٌ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ فَلَا يَتَوَاضَعُ إِلَّا رَفَعَهُ اَللَّهُ، وَلَا يَتَعَاظَمُ إِلَّا وَضَعَهُ اَللَّهُ».

وهنا يبين الإمام عليه السلام الحقيقة التــي طالما أكّدت عليها نصوص أهل البيت عليهم السلام من اتّصال نور العقل ونور الوحي، وأنّهما شــعاعان من نور واحد، وكلاهما حجّة اللّه على الإنسان.

ولعلّ حكمــة بيان هذه الحقيقة في هذا الموقع من الســياق وليس في بداية الوصية إنّما هي لكي يتوضّح أوّلاً معنى العقل، ولا يتوهّم أحد أنّ كلّ ما يفرزه قلب البشــر يُعتبر عقلاً. كلا، إنّما العقل ما يقابل الجهل والهوى، يقول الإمام عليه السلام:

«يَا هِشَــامُ! إِنَّ لِلَّهِ عَلَى اَلنَّاسِ حُجَّتَيْنِ: حُجَّةً ظَاهِــرَةً وَحُجَّةً بَاطِنَةً فَأَمَّا اَلظَّاهِرَةُ فَالرَّسُولُ وَاَلْأَنْبِيَاءُ وَاَلْأَئِمَّةُ وَأَمَّا اَلْبَاطِنَةُ فَالْعُقُولُ».

صفات العقل

كيف نعرف العقل ونميزّه عن الهوى، وعن تلك الوساوس الشيطانية التي تتلبّس بالعقل وتسمّى في منطق الإسلام بالنكراء؟

أوّلاً: قد نعرف العقل من خلال صفات صاحبه، فَمَن انجرف في تيّار شهواته، ولم يضبط تصرّفاته حسب الحكمة، ولم يمتلك منهجية علمية رشيدة في مواقفه، فإنّه لا يعتبر عاقلاً.

ومن تلك الصفات صفة الشكر النابعة من معرفة الإنسان بنفسه، وأنّه لم يكن ثمّ كان، فكل إضافة إليه نعمة لا بّد أن يشكر ربّه عليها، ويسعى جاهداً لإبقائها بحفظ العوامل المقتضية لها.

أمّا الذي إذا حظي بنعمةً اغتّر بها، وزعم أنّما أُوتيها بعلم، أو أنّها جزء من كيانه فهو جاهل، وسوف يفقد النعمة سريعاً أو يتصرّف فيها بما يضرّه.

والصبر صفة أخرى يتّسم بها العاقل، لأنّه لا ينظر إلى لحظته الراهنة فيجزع، بل ينظر إلى المستقبل فيأمل الخير، وينظر إلى الماضي فيستصحب الشكر، وينظر إلى مَنْ دونه فيحمد اللّه على بقيّة النعم التي تحيط به.

وبين صفتي الشكر والصبر تجد المؤمن يقتصد على الحلال شكراً، ويكف نفسه عن الحرام صبراً.

«يَا هِشَامُ! إِنَّ اَلْعَاقِلَ اَلَّذِي لاّ يَشْغَلُ اَلْحَلاَلُ شُكْرَهُ، وَلاَ يَغْلِبُ اَلْحَرَامُ صَبْرَهُ».

ثانياً: بين العقل والهوى يتقلّب فؤاد البشر حتى يغلب أحدهما صاحبه، ولكلّ منهما جذور عميقة في فطرة الإنسان وطبيعته.

وطول الأمل جذر بعيد الغور في قلب البشر، لأنّه يحب البقاء فيتجاهل ويتناسى النهاية الحتمية التي تنتظره، حتى قيل بأنّ الموت أشبه حق بالباطل، يعترف به الجميع ولا يصدقون أنّهم ميّتون تصديقاً نفسيّاً وعمليّاً، وإذا استبد طول الأمل بقلب الإنسان فإنّه لا يحسّ بحركة الزمن، ولا يجهد نفسه في استغلال لحظات عمره فيما ينفعه غداً عند ربّه، ولا يتحسّس بمسؤولياته، وهكذا تتشوّش رؤيته في كلّ شيء، من هنا يقول الإمام عليه السلام:

«يَا هِشَامُ! مَنْ سَلَّطَ ثَلَاثاً عَلَى ثَلَاثٍ فَكَأَنَّمَا أَعَانَ هَوَاهُ عَلَى هَدْمِ عَقْلِهِ: مَنْ أَظْلَمَ نُورُ فِكْرِهِ بِطُولِ أَمَلِهِ».

إنّ منِ اعترف بالنهاية القريبة يستثير فكره حتى يعرف كيف ينجو بنفسه من دواهي الموت والقبر والحساب، وهكذا لا يني يفكّر في حياته وتطويرها نحو الأحسن، بينما الساهي اللاهي الذي يعيش تمنّيات الخلود لا يجد دافعاً نحو التفكّر.

ومثله الذي لا يضبط حديثه وفق مقياس فكره، فيقول ما لا يعلم أو ما لا ينفع أو ما يضّره السكوت عليه، فإذا بالصواب يضيع في زحمة الثرثرة، والحكمة تخفى بين ركام الكلمات التافهة، وهكذا يعين هواه على هدم عقله، يقول عنه الإمام عليه السلام:

«وَمَحَا طَرَائِفَ حِكْمَتِهِ بِفُضُولِ كَلَامِهِ».

أمّا الصفة الثالثة التي تهدم العقل فهي النظرة المنبعثة عن الشهوة، وليس عن العبرة، وبين الشهوة والعبرة تناقض، وإليك بيان ذلك:

إذا استهوتك فتاة بفتنتها وجمالها، فإنّك لا تستطيع أنْ تفكّر في عواقب الزواج معها، ولا تنظر إلى المسألة إلاّ من بُعْدٍ واحد، وإذا دعتك العصبيَّة

إلـــى عداوة جماعة فإنّك لا تنظر إلى أيّة صفة إيجابية فيهم، ولا يمكنك أن تقيّم موقفك منهم تقييماً إيجابياً.

إنّ نظرة الإنســـان نافذة عقله، ولكن شـــريطة أنْ ندعها حرة طليقة، أمّا النظـــرة الموجّهة بالرضا والغضب، وبالشـــهوات والأهواء، فإنّها لا تعود إليك إلاّ بما أرســـلتها اليه، لا بالحقائـــق الموضوعية، من هنا يقول الإمام عليه السلام عمّن يهدم عقله:

«وَأَطْفَأَ نُورَ عِبْرَتِهِ بِشَـــهَوَاتِ نَفْسِهِ فَكَأَنَّمَا أَعَانَ هَوَاهُ عَلَى هَدْمِ عَقْلِهِ وَمَنْ هَدَمَ عَقْلَهُ أَفْسَدَ عَلَيْهِ دِينَهُ وَدُنْيَاهُ».

ثالثاً: إنّما يتقبّل اللّه العمل النّقي من شـــوائب الفخـــر والرياء وطهارة العمل، ونقاؤه رهين أدائه بقلبٍ سليم ونَّيةٍ خالصة، وبرعاية حدوده، وعدم إلحاق ما يبطله كالّمن والأذى والاســـتطالة علـــى الآخرين، وكلّ ذلك لا يكون إلاّ بتحقيق هدف الأعمال الصالحة المتمثِّل في إخلاص العبودية لله.

وتزكية النفس عن أدران الكبر والجهل لا تكون إلاّ بالانتفاع من العقل لمعرفة شروط صحّة العمل الظاهرة منها والباطنة.

هكذا يقول الإمام موسى بن جعفر عليه السلام:

«يَا هِشَـــامُ! كَيْفَ يَزْكُو عِنْدَ اَللَّهِ عَمَلُكَ وَأَنْتَ قَدْ شَغَلْتَ عَقْلَكَ عَنْ أَمْرِ رَبِّكَ، وَأَطَعْتَ هَوَاكَ عَلَى غَلَبَةِ عَقْلِكَ؟».

مـــن هنا يتبينَّ لنا أن تزكية العمل أهمّ من العمل ذاته، وهي لا تتحقّق إلاّ بالتفكّر والتعقّل والابتعاد عن جوانب الهوى.

ويعود الإمام عليه السلام إلى بيان جانب آخـــر من هذه الحقيقة قريباً، حيث

يوضّح كيف أنّ طاعة اللّه لا تكون بغير العقل.

رابعـاً: تطمئن نفس العاقل بموهبة العقـل، وتثق بأحكامه وترضى بما لديه، ولا يحسّ العاقل بمركّب النقص، ولا يفتش عمّا يملأ فراغ نفسه من صخب الأصحاب والمردة، ومن ثروات الدنيا الزائلة.

بينما تـرى الجاهل على العكس تماماً، فيعيش التـردّد، ويبحث عمَّنْ يقلّد، ويسـتجيب لكلّ ناعقٍ، ويخشـى من الانفراد بشيء، ويتوحّش من الوحدة، ويجمع من أموال الدنيا أكثر من حاجته لعلّه يجبر بها نقص نفسه وإحساسه بالضعف والخلاء.

لذلـك كانت علامة قوّة العقل الصبر على الوحـدة، لأنّ العقل القوي يغُني صاحبه عن الأنصار والأصحاب، يقول الإمام عليه السلام:

«يَا هِشَامُ !اَلصَّبْرُ عَلَى اَلْوَحْدَةِ عَلاَمَةُ قُوَّةِ اَلْعَقْلِ، فَمَنْ عَقَلَ عَنِ اَللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى اِعْتَزَلَ أَهْلَ اَلدُّنْيَا وَاَلرَّاغِبِينَ فِيهَا وَرَغِبَ فِيمَا عِنْدَ رَبِّهِ، وَكَانَ اَللَّهُ آنِسَهُ فِي اَلْوَحْشَةِ وَصَاحِبَهُ فِي اَلْوَحْدَةِ، وَغِنَاهُ فِي اَلْعَيْلَةِ، وَمُعِزَّهُ فِي غَيْرِ عَشِيرَةٍ».

العقل وسيلة الطاعة

بالعقل نعرف اللّه، وبالعقل نعرف الرسـول والحجّة، وكذلك بالعقل نطيع ربّنا، ومَنْ لا ينتفع بعقله في اختيار الوسـيلة المناسبة للطاعة لا يبلغ هدفه في إرضاء ربّه، لماذا؟

أَوَلَيْسـت طاعة اللّه فرع معرفة أحكامه؟ أَوَلَيْس العلمُ هو وسيلة معرفة الأحكام؟

أَوَلَيْس التعلّم سـبيل العلم؟ ولَكِنْ كيف يتعلّـم مَنْ ضعف عقله، ولم

تكتمل قوّة عقله؟ والقلب المشـــحون بعواصف الشهوة والغضب، كيف تثبت فيه أحكام الربّ؟ والقلب المعتقل في سجن الكبر والأحقاد والحسد والحرص كيف ينفتح على رحاب الحقائق؟

ثمّ إنّ العلم الإلهي لا يأتيك إلّا عبر عالم ربّاني، وأنّى لك التعرّف عليه لو لم تكن عاقلاً؟

«يَا هِشَـــامُ! نُصِبَ اَلْخَلْقُ لِطَاعَـــةِ اَللَّهِ، وَلَا نَجَـــاةَ إِلَّا بِالطَّاعَةِ، وَاَلطَّاعَةُ بِالْعِلْمِ، وَاَلْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَاَلتَّعَلُّمُ بِالْعَقْلِ يُعْتَقَدُ، وَلَا عِلْمَ إِلَّا مِنْ عَالِمٍ رَبَّانِيٍّ، وَمَعْرِفَةُ اَلْعَالِمِ بِالْعَقْلِ».

من هنا يجب على المؤمن السعي نحو تكميل عقله حتى يتسنى له العلم بما يجب عليه، وليس من المناســـب أن يبقى جـــاهلاً بحقائق دينه ويعتذر لذلك بأنّه لم يُؤْتَ عقلاً يســـتوعبها؛ لأنّ كمال العقل بيد الإنسان نفسه عبر تلك الوصايا العديدة التي نجدها في آيات الذكر، وتفســـيرها من كلمات أهله، ثمّ يقول الإمام عليه السلام وهو يبين فائدة العقل في مجال طاعة الله:

«يَا! هِشَامُ قَلِيلُ اَلْعَمَلِ مِنَ اَلْعَاقِلِ مَقْبُولٌ مُضَاعَفٌ، وَكَثِيرُ اَلْعَمَلِ مِنْ أَهْلِ اَلْهَوَى وَاَلْجَهْلِ مَرْدُودٌ».

ويبيّن الإمام عليه السلام أهمية العقل، ومـــدى اهتمام العاقل بتنمية الحكمة التي هي شعاع من نور العقل يضيء الجوانب العملية من الحياة، فيقول:

«يَا هِشَـــامُ! إِنَّ اَلْعَاقِلَ رَضِيَ بِالدُّونِ مِنَ اَلدُّنْيَا مَـــعَ اَلْحِكْمَةِ، وَلَمْ يَرْضَ بِالدُّونِ مِنَ اَلْحِكْمَةِ مَعَ اَلدُّنْيَا، فَلِذَلِكَ رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ».

كيف ننمّي موهبة العقل؟

لأنّ وصية الإمام عليه السلام لهشام برنامج متكامل في حقل العقل فإنّه يذكّره بالعقل ووسائل تنميته، وأبرزها الأمور التالية:

أوّلاً: الزهد في الدنيا التي هي الحجاب الأكبر أمام عقل الإنسان، أَوَتدري لماذا؟ لأنّ القلب المنهوم بالدنيا لا ينبي يبحث عنها ويدخل الصراع تلو الصراع من أجلها، فيغلب على قلبه حبّها، ويغلب على فكره كيفيّة الحصول عليها، وإذا فَقَدَ شيئاً منها ذابت نفسه حسرةً عليها، وفي مثل هذه الحالة أنّى له الاهتمام بالحكمة ودرجات الكمال المعنوي؟ لنستمع إلى مواعظ الإمام عليه السلام في ذلك علّنا نهتدي بها ونتكامل عقليّاً ببركتها:

«يَا هِشَامُ! إِنْ كَانَ يُغْنِيكَ مَا يَكْفِيكَ فَأَدْنَى مَا فِي اَلدُّنْيَا يَكْفِيكَ، وَإِنْ كَانَ لاَ يُغْنِيكَ مَا يَكْفِيكَ فَلَيْسَ شَيْءٌ مِنَ اَلدُّنْيَا يُغْنِيكَ، يَا هِشَامُ! إِنَّ اَلْعُقَلاَءَ تَرَكُوا فُضُولَ اَلدُّنْيَا فَكَيْفَ اَلذُّنُوبَ، وَتَرْكُ اَلدُّنْيَا مِنَ اَلْفَضْلِ وَتَرْكُ اَلذُّنُوبِ مِنَ اَلْفَرْضِ».

لعلّ الإمام عليه السلام يقصد بيان هذه الحقيقة، وهي أنّ الذنوب هي التي يجب اجتنابها ولكن العقلاء تركوا أيضاً الزيادة في الدنيا احتياطاً لأنفسهم وحمايةً لها من الوقوع في أشراك الذنوب، ولأنّ اهتمامهم بفضل الدنيا كان يمنعهم من التقدّم في مدارج الكمال المعنوي.

وأضاف الإمام عليه السلام:

«يَا هِشَامُ! إِنَّ اَلْعُقَلاَءَ زَهِدُوا فِي اَلدُّنْيَا وَرَغِبُوا فِي اَلْآخِرَةِ لِأَنَّهُمْ عَلِمُوا أَنَّ اَلدُّنْيَا طَالِبَةٌ وَمَطْلُوبَةٌ وَاَلْآخِرَةَ طَالِبَةٌ وَمَطْلُوبَةٌ، فَمَنْ طَلَبَ اَلْآخِرَةَ طَلَبَتْهُ اَلدُّنْيَا حَتَّى يَسْتَوْفِيَ مِنْهَا رِزْقَهُ، وَمَنْ طَلَبَ اَلدُّنْيَا طَلَبَتْهُ اَلْآخِرَةُ فَيَأْتِيهِ اَلْمَوْتُ

فَيُفْسِدُ عَلَيْهِ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ».

والتضرّع إلى اللّه وسيلة هامة نحو تكميل العقل، ليس فقط لأنّه يروّض النفس على العبودية للّه التي تورث بدورها كمال العقل، بل لأنّ اللّه سبحانه يؤيّد عقل المؤمن بنور هداه، فإذا به ينظر بنور اللّه.

هكذا ينصح الإمام عليه السلام هشاماً بالتضرّع إلى اللّه ليكمل عقله فيكون غِنى في النفس، وراحة في القلب من الحسد، وسلامة في الدين، يقول عليه السلام:

«يَا هِشَامُ! مَنْ أَرَادَ اَلْغِنَى بِلاَ مَالٍ وَرَاحَةَ اَلْقَلْبِ مِنَ اَلْحَسَدِ وَاَلسَّلاَمَةَ فِي اَلدِّينِ فَلْيَتَضَرَّعْ إِلَى اَللَّهِ فِي مَسْأَلَتِهِ بِأَنْ يُكَمِّلَ عَقْلَهُ، فَمَنْ عَقَلَ قَنِعَ بِمَا يَكْفِيهِ، وَمَنْ قَنِعَ بِمَا يَكْفِيهِ اِسْتَغْنَى، وَمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِمَا يَكْفِيهِ لَمْ يُدْرِكِ اَلْغِنَى أَبَداً».

ويبيّن الإمام عليه السلام حقيقةً هامةً إذ يصف العاقل بمَن يجد حقيقة المعرفة في قلبه، فتفيض آثارها على جوارحه، فإذا بأفعاله جميعاً رسل قلبه المطمئن وعقله النّير:

«يَا هِشَامُ! إِنَّ اَللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ حَكَى عَنْ قَوْمٍ صَالِحِينَ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ اَلْوَهَّابُ﴾ حِينَ عَلِمُوا أَنَّ اَلْقُلُوبَ تَزِيغُ وَتَعُودُ إِلَى عَمَاهَا وَرَدَاهَا، إِنَّهُ لَمْ يَخْفَ اَللَّهَ مَنْ لَمْ يَعْقِلْ عَنِ اَللَّهِ، وَمَنْ لَمْ يَعْقِلْ عَنِ اَللَّهِ لَمْ يُعْقَدْ قَلْبُهُ عَلَى مَعْرِفَةٍ ثَابِتَةٍ يُبْصِرُهَا وَيَجِدُ حَقِيقَتَهَا فِي قَلْبِهِ، وَلاَ يَكُونُ أَحَدٌ كَذَلِكَ إِلاَّ مَنْ كَانَ قَوْلُهُ لِفِعْلِهِ مُصَدِّقاً وَسِرُّهُ لِعَلاَنِيَتِهِ مُوَافِقاً؛ لِأَنَّ اَللَّهَ لَمْ يَدُلَّ عَلَى اَلْبَاطِنِ اَلْخَفِيِّ مِنَ اَلْعَقْلِ إِلاَّ بِظَاهِرٍ مِنْهُ وَنَاطِقٍ عَنْهُ».

هكذا يؤكّد الإمام عليه السلام الحقيقة التي سبق أن بيَّنها من أنّ الهدف الأساسّي للدين أنْ يعقل الإنسانُ عزّة اللّه، فيكون أثر الوحي في قلبه، وأثر

الطاعات تكامُل عقله ومعرفته وتزكية نفسه، وسكينة الإيمان فيها، وتوافق ظاهره مع واقعه وباطنه.

ولتوضيح هذا الأمر أكثر فأكثر يحكي لنا حديثاً عن جدّه الإمام علي عليه السلام يبين فيه طريقة تكامل العقل:

«يَا هِشَامُ! كَانَ أَمِيرُ اَلْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: مَا مِنْ شَيْءٍ عُبِدَ اَللَّهُ بِهِ أَفْضَلَ مِنَ اَلْعَقْلِ، وَمَا تَمَّ عَقْلُ اِمْرِئٍ حَتَّى يَكُونَ فِيهِ خِصَالٌ شَتَّى: اَلْكُفْرُ وَاَلشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونَانِ، وَاَلرُّشْدُ وَاَلْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولَانِ، وَفَضْلُ مَالِهِ مَبْذُولٌ وَفَضْلُ قَوْلِهِ مَكْفُوفٌ، نَصِيبُهُ مِنَ اَلدُّنْيَا اَلْقُوتُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنَ اَلْعِلْمِ دَهْرَهُ، اَلذُّلُّ أَحَبُّ إِلَيْهِ مَعَ اَللَّهِ مِنَ اَلْعِزِّ مَعَ غَيْرِهِ، وَاَلتَّوَاضُعُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ اَلشَّرَفِ، يَسْتَكْثِرُ قَلِيلَ اَلْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِهِ، وَيَسْتَقِلُّ كَثِيرَ اَلْمَعْرُوفِ مِنْ نَفْسِهِ، وَيَرَى اَلنَّاسَ كُلَّهُمْ خَيْراً مِنْهُ وَأَنَّهُ شَرُّهُمْ فِي نَفْسِهِ وَهُوَ تَمَامُ اَلْأَمْرِ».

هكذا لو أخضع الإنسان نفسه الأمّارة بالسوء، فاتّصف بتلك الصفات الحميدة واستطاع أن يقتلع جذر الفساد من نفسه -الذي يتمثّل في الكبر- فإذا به يرى أنّ الآخرين هم أفضل منه، وهناك يكتمل عقله، وهو تمام الأمر.

ويسوق الإمام الكاظم عليه السلام طائفة من الخصال الحميدة قبل أن يبينّ العلاقة بين العقل والمروءة، وبين المروءة والدين فيقول:

«يَا هِشَامُ! مَنْ صَدَقَ لِسَانُهُ زَكَى عَمَلُهُ، وَمَنْ حَسُنَتْ نِيَّتُهُ زِيدَ فِي رِزْقِهِ، وَمَنْ حَسُنَ بِرُّهُ بِإِخْوَانِهِ وَأَهْلِهِ مُدَّ فِي عُمُرِهِ. يَا هِشَامُ! لَا تَمْنَحُوا اَلْجُهَّالَ اَلْحِكْمَةَ فَتَظْلِمُوهَا، وَلَا تَمْنَعُوهَا أَهْلَهَا فَتَظْلِمُوهُمْ. يَا هِشَامُ! كَمَا تَرَكُوا لَكُمُ اَلْحِكْمَةَ فَاتْرُكُوا لَهُمُ اَلدُّنْيَا. يَا هِشَامُ! لَا دِينَ لِمَنْ لَا مُرُوَّةَ لَهُ، وَلَا مُرُوَّةَ لِمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ».

ويتبادر سؤال: ما هي المروءة، وما هي العلاقة بينها وبين العقل، والدين؟

الجواب: إنّ المروءة هي جِماع صفات الخير التي يراها النّاس تكوِّن شخصية الرجل المتكامل، وقد يختلف بعض أبعادها عبر العصور والأمصار، إلاّ أنّ إطاراتها العامة واحدة، وبما أنّ الذين يستحسنونها هم ذوو العقول فإنّها تعتبر علامة مميزّة للعقل، فمن لا مروءة له لا عقل له.

ومن جهة أخرى فلأنّ العقل والدين متطابقان، فإنّ المروءة والدين متطابقان أيضاً.

وبعد بيان هذه الحقيقة يعود الإمام عليه السلام لبيان علامة أخرى للعقل هي سموّ التطلّع، وعلّو الهمّة فمَنْ لم يرضَ لنفسه إلاّ الآخرة كان عظيماً: «**وَإِنَّ أَعْظَمَ اَلنَّاسِ قَدْراً اَلَّذِي لاَ يَرَى اَلدُّنْيَا لِنَفْسِهِ خَطَراً، أَمَا إِنَّ أَبْدَانَكُمْ لَيْسَ لَهَا ثَمَنٌ إِلاَّ اَلْجَنَّةُ فَلاَ تَبِيعُوهَا بِغَيْرِهَا**».

ثمّ يسوق الإمام عليه السلام جملةً أخرى من الصفات الحميدة التي تعتبر علامات لكمال العقل، كما أنّ السعي وراء التحلّي بها وسيلة قريبة لزيادة العقل. ونحن إذ نتلوها معاً بلا شرح فلأنّها واضحة، وعلاقتها بزيادة العقل شبيهة بعلاقة نظائرها ممّا تحدثنا عنه آنفاً.

«**يَا هِشَامُ! إِنَّ أَمِيرَ اَلْمُؤْمِنِينَ عليه السلام كَانَ يَقُولُ**[1]: «**لاَ يَجْلِسُ فِي صَدْرِ اَلْمَجْلِسِ إِلاَّ رَجُلٌ فِيهِ ثَلاَثُ خِصَالٍ يُجِيبُ إِذَا سُئِلَ وَيَنْطِقُ إِذَا عَجَزَ اَلْقَوْمُ**

(١) ورد في الكافي: «إِنَّ مِنْ عَلاَمَةِ اَلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ فِيهِ ثَلاَثُ خِصَالٍ: يُجِيبُ إِذَا سُئِلَ، وَيَنْطِقُ إِذَا عَجَزَ اَلْقَوْمُ عَنِ اَلْكَلاَمِ، وَيُشِيرُ بِالرَّأْيِ اَلَّذِي فِيهِ صَلاَحُ أَهْلِهِ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مِنْ هَذِهِ اَلْخِصَالِ اَلثَّلاَثِ شَيْءٌ فَهُوَ أَحْمَقُ.

عَنِ اَلْكَلَامِ وَيُشِيرُ بِالرَّأْيِ اَلَّذِي فِيهِ صَلَاحُ أَهْلِهِ فَمَنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ شَيْءٌ مِنْهُنَّ فَجَلَسَ فَهُوَ أَحْمَقُ».

«وَقَالَ اَلْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام: «إِذَا طَلَبْتُمُ اَلْحَوَائِجَ فَاطْلُبُوهَا مِنْ أَهْلِهَا. قِيلَ: يَا اِبْنَ رَسُولِ اَللَّهِ وَمَنْ أَهْلُهَا؟ قَالَ: اَلَّذِينَ قَصَّ اَللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَذَكَرَهُمْ فَقَالَ: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[1] قَالَ: هُمْ أُولُو العُقُولِ».

«وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الحُسَيْنِ عليه السلام: «مُجَالَسَةُ اَلصَّالِحِينَ دَاعِيَةٌ إِلَى اَلصَّلَاحِ، وَأَدَبُ اَلْعُلَمَاءِ[2] زِيَادَةٌ فِي اَلْعَقْلِ، وَطَاعَةُ وُلَاةِ اَلْعَدْلِ تَمَامُ اَلْعِزِّ، وَاِسْتِثْمَارُ اَلْمَالِ[3] تَمَامُ اَلْمُرُوَّةِ، وَإِرْشَادُ اَلْمُسْتَشِيرِ قَضَاءٌ لِحَقِّ اَلنِّعْمَةِ، وَكَفُّ اَلْأَذَى مِنْ كَمَالِ اَلْعَقْلِ وَفِيهِ رَاحَةُ اَلْبَدَنِ عَاجِلًا وَآجِلًا».

«يَا هِشَامُ! إِنَّ اَلْعَاقِلَ لَا يُحَدِّثُ مَنْ يَخَافُ تَكْذِيبَهُ، وَلَا يَسْأَلُ مَنْ يَخَافُ مَنْعَهُ، وَلَا يَعِدُ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَلَا يَرْجُو مَا يُعَنِّفُ بِرَجَائِهِ[4]، وَلَا يَتَقَدَّمُ عَلَى مَا يَخَافُ اَلْعَجْزَ عَنْهُ» [5]

«وَكَانَ أَمِيرُ اَلْمُؤْمِنِينَ عليه السلام يُوصِي أَصْحَابَهُ يَقُولُ: أُوصِيكُمْ بِالْخَشْيَةِ مِنَ اَللَّهِ فِي اَلسِّرِّ وَاَلْعَلَانِيَةِ، وَاَلْعَدْلِ فِي اَلرِّضَا وَاَلْغَضَبِ، وَاَلِاكْتِسَابِ فِي اَلْفَقْرِ وَاَلْغِنَى، وَأَنْ تَصِلُوا مَنْ قَطَعَكُمْ، وَتَعْفُوا عَمَّنْ ظَلَمَكُمْ، وَتُعْطُوا[6] عَلَى مَنْ

---

(١) سورة الزمر، الآية: ١٢.

(٢) في الكافي«وآداب العلماء».

(٣) أي استنماؤه بالكسب و التجارة.

(٤) التعنيف: اللؤم و التوبيخ و التقريع، و المراد أنّ العاقل لا يرجو فوق ما يستحقّه وما لم يستعده.

(٥) في الكافي«و لا يقدم على ما يخالف فوته بالعجز عنه» أي لا يبادر إلى فعل قبل أوانه خوفاً من أن يفوته بالعجز عنه في وقته.

(٦) في بعض نسخ المصدر«وتعطفوا».

حَرَمَكُمْ، وَلْيَكُنْ نَظَرُكُمْ عَبَراً، وَصَمْتُكُمْ فِكْراً، وَقَوْلُكُمْ ذِكْراً، وَطَبِيعَتُكُمُ اَلسَّخَاءَ[١]، فَإِنَّهُ لاَ يَدْخُلُ اَلْجَنَّةَ بَخِيلٌ وَلاَ يَدْخُلُ اَلنَّارَ سَخِيٌّ».

«يَا هِشَامُ! رَحِمَ اَللَّهُ مَنِ اِسْتَحْيَا مِنَ اَللَّهِ حَقَّ اَلْحَيَاءِ، فَحَفِظَ اَلرَّأْسَ وَمَا حَوَى[٢]، وَاَلْبَطْنَ وَمَا وَعَى[٣]، وَذَكَرَ اَلْمَوْتَ وَاَلْبِلَى[٤]، وَعَلِمَ أَنَّ اَلْجَنَّةَ مَحْفُوفَةٌ بِالْمَكَارِهِ[٥]، وَاَلنَّارَ مَحْفُوفَةٌ بِالشَّهَوَاتِ».

«يَا هِشَامُ! مَنْ كَفَّ نَفْسَهُ عَنْ أَعْرَاضِ اَلنَّاسِ أَقَالَهُ اَللَّهُ عَثْرَتَهُ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ عَنِ اَلنَّاسِ كَفَّ اَللَّهُ عَنْهُ غَضَبَهُ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ».

«يَا هِشَامُ! إِنَّ اَلْعَاقِلَ لاَ يَكْذِبُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ هَوَاهُ».

«يَا هِشَامُ! وُجِدَ فِي ذُؤَابَةِ[٦] سَيْفِ رَسُولِ اَللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم أَنَّ أَعْتَى اَلنَّاسِ عَلَى اَللَّهِ مَنْ ضَرَبَ غَيْرَ ضَارِبِهِ وَقَتَلَ غَيْرَ قَاتِلِهِ».

---

(١) في بعض نسخ المصدر «وإياكم والبخل، وعليكم بالسخاء».

(٢) «وما حوى» أي ما حواه الرأس من الأوهام والأفكار بأن يحفظها ولا يبديها، ويمكن أن يكون المراد ما حواه الرأس من العين والأذن و سائر المشاعر بأن يحفظها عمّا يحرم عليه.

(٣) «وما وعى» أي ما جمعه من الطعام و الشراب بأن لا يكونا من حرام.

(٤) الاندراس والاضمحلال.

(٥) المحفوفة: المحيطة المكاره: جمع مكرهة بفتح الراء و ضمها: ما يكرهه الإنسان ويشق عليه، و المراد أنّ الجنة محفوفة بما يكره النفس من الأقوال والأفعال فتعمل بها، فمن عمل بها دخل الجنة، والنار محفوفة بلذات النفس و شهواتها، فمن أعطى نفسه لذتها و شهوتها دخل النار.

(٦) الذؤابة من كلّ شيء: أعلاه، ومن السيف: علاقته. ومن السوط: طرفه. ومن الشعر: ناصيته. و عتا يعتو عتواً، و عتى يعتي عتياً بمعنى واحد، أي استكبر و تجاوز الحد، والعتو: الطغيان و التجاوز عن الحدود و التجبر.

إيقاظ العقل

العقل نور يغفل الإنسان عنه، فيضلّ بعيداً في ظلمات جهله، ويغطّ في سبات عميق!

ويبعث اللّه أنبياءه الكـــرام ليثيروا للناس دفائن العقول، ويوقظوهم من سباتهم.

إنّهم في ظلمات الجهل، ويخرجهم الأنبياء إلى نور العقل.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[١].

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[٢].

﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[٣].

وهذا هو دور التذكرة الأساســـي الذي يقول عنـــه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في ســـياق حديثه عن هدف بعث الرسل عليهم السلام: «فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْـــتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِـــيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ»[٤]، وقد أشارت آيات القرآن زهاء (٢٥٠) مرة إلى هذا الدور العظيم، دور التذكرة، حتى سُـــمّي القرآن ذكراً كما سُمّي الرسلو الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بالذكر وقال ربنا سبحانه:

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾[٥].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.
(٢) سورة ابراهيم، الآية: ١.
(٣) سورة ابراهيم، الآية: ٥.
(٤) نهج البلاغة، الخطبة ١.
(٥) سورة يوسف، الآية: ١٠٤.

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾[1].

والآياتُ التي تبعث الإنسان نحو النظر والتفكّر والتعقّل والتدبّر وما أشبه إضاءاتٌ في هذا السبيل، وإذا استيقظ العقل من سباته واستثيرت دفائنه فإنّ صاحبه يتجنب نسبةً كبيرة من الأخطاء الجذرية والضلالات البعيدة، ومن أجل أن نعرف ذلك دَعنا نبيِّن فكرةً أساسية:

الصور التي تنعكس على نفوسنا من الحقائق الخارجية ربما كانت مطابقة لها، وربما كانت مخالفة، فلا يمكن الاعتماد عليها والثقة بها.

والمشكلة الرئيسية التي ظلّت تقلق البشرية دوماً هي البحث عن ضمانةٍ لمعرفة مدى تطابق ما نعتقد أنّه حقٌّ فعلاً، وبتعبيرٍ آخر عن طريقةٍ لتجنُّب الخطأ.

ولا شكّ أنّ محاولات البشر لإصلاح (المنطق) قد نجحت جزئيّاً منذ انتشار الفكر السوفسطائي الجدلي والمنطق الأرسطي الذي جاء ردّاً مناسباً له، ثمّ المتطورات المحددة التي طرأت عليه، وحتى المناهج الحديثة كالمنطق الرياضي والتجريبي.

إلاّ أنّ الريب لا يزال يحكم عقل البشر، وذلك لأنّه لم يفتّش عن ذات العقل الذي يعتبر بمثابة المصباح، إنّما اكتفى بشعاعه وجعله بديلاً عنه، ولو عرف المصباح وجعل شعاعه دليلاً عليه لكفاه ذلك.

وهذا بالضبط هو النهج الإسلامي في المعرفة: وهو اكتشاف المصباح بالمصباح، وبما يشّع من ضياء، وعدم الإلحاد فيه بما يضاء من أشياء. أرأيت العلم بسائر الحقائق إنّما يكون بفضل النور، فإذا عقل البشر هذه

(١) سورة الزخرف، الآية: ٤٤.

الحقيقة أنّ علمه بالبديهيات -التي هي أصل العلم بسائر الحقائق- إنّما يكون بفضل النور الإلهي الذي نسميه عقلاً أو علماً؛ إذا عقل ذلك عرف أنّ الغفلة عن هذا النور ضلال مبين.

بلى، إنّ معرفة النور الذي يضيء ما حوله ليست كمعرفة الأشياء التي تضاء بالنور، أَوَتدري لماذا؟ لأنّ النور يُعرف بذاته وبما يكشفه من الحقائق، فإذا أردت معرفته بغيره ضللت عنه وعرفت مجموعة أشياء مضاءة هي بدورها بذات النور ولم تعرف النور ذاته، كما تورط الفلاسفة حين زعموا أنّ العقل هو البديهيات أو ما يسمى اليوم بالأحكام المسبقة، أو هي الصور المنعكسة من الأشياء في صقع الذهن البشري، ولم يسألوا أنفسهم كيف يتمّ علمنا بهذه البديهيات أو بتلك الصور؟

ولأنّ الصور قد تكون حقائق وقد تكون إفرازات لحالات نفسية أو عصبية أو ما أشبه -والتي نسميها بالأوهام- فقد وقعوا في إشكالية كبيرة لم تنفعهم محاولاتهم العديدة للخروج منها، تلك الإشكالية هي ما الفرق بين الصور المنبعثة من الحقائق الخارجية وتلك الصور المختلقة من الحالات النفسية ودون أن يكون لها أيّ رصيد من الخارج؟

وأعظم ما في بحوثنا هذه اكتشاف وسيلة للتفريق بين الحقائق التي تنعكس علينا وبين الأوهام التي تتزاحم عادة على أفئدتنا، وإذا كنا قد وعينا البصائر التي سبقت فإنّنا نبلغ هذا الهدف بسهولة ونحلّ تلك الإشكالية، كيف ذلك؟

بالطرق التي ذكّرنا بها الإسلام سوف نكتشف العقل، ونزداد وعياً به وبامتداداته وصفاته وصفات من يتحلّى به، وهنالك يكون من السهل معرفة أضداده من الجهل والهوى.

فقد ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**اِعْرِفُوا اَلْعَقْلَ وَجُنْدَهُ وَاَلْجَهْلَ وَجُنْدَهُ تَهْتَدُوا**»[١] فيكون هدفنا الأسمى التعرّف على عقولنا بصورة أفضل حتى لا يتشابه علينا شعاع العقل بظلام الجهل الذي يحيط به، وحسب تعبير أئمّة الدين: نميّز بين العقل والنكراء التي هي شبيهة بالعقل، فقد جاء في حديث شريف عن الإمام الصادق عليه السلام يسأله الراوي ويقول له: ما العقل؟ قال: «**مَا عُبِدَ بِهِ اَلرَّحْمَنُ وَاُكْتُسِبَ بِهِ اَلْجِنَانُ**»، فقال الراوي: فالذي كان في معاوية؟ قال عليه السلام: «**تِلْكَ اَلنَّكْرَاءُ، تِلْكَ اَلشَّيْطَنَةُ، وَهِيَ شَبِيهَةٌ بِالْعَقْلِ وَلَيْسَتْ بِالْعَقْلِ**»[٢].

أقول: إذا ميّزنا العقل عن النكراء فهنالك نكون كمن وجد المصباح فاستضاء بنوره في دياجير الظلام، وهكذا كانت آيات الوحي وبصائر المفسّرين لها لا تني تذكّرنا بالعقل، وتحفّز فينا الرغبة فيه، وتحذّرنا الجهل وتنذرنا من مغبة اتباعه.

وهذه النصوص لا تنفع كلّ النّاس، إنّما تنفع الذين يلقون السمع للشهادة فيَسْعون جاهدين لمعرفة العقل، ولا يحجبون أنفسهم بتصوّرات مسبقة عنه فيضلون عنه السبيل.

ويبدو أنّ نهج الوحي في معرفة العقل يتدرّج عبر المراحل التالية:

أوّلًا: التذكرة بالعقل، وبأنّ الإنسان عاقل، وعليه أن ينتفع بعقله، واستفاضت الآيات بهذه الكلمات: ﴿**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾[٣]، ﴿**أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾[٤]،

---

(١) الكافي، ج١، ص ٢١.
(٢) الكافي، ج١، ص ١١.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢.
(٤) سورة يونس، الآية: ٣.

﴿وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾(١)، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾(٢). وقال ربّنا سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾(٣)، وقال سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾(٤).

وقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾(٥).

وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم:

«لِكُلِّ شَيْءٍ آلَةٌ وَعُدَّةٌ وَآلَةُ الْمُؤْمِنِ وَعُدَّتُهُ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ مَطِيَّةٌ وَمَطِيَّةُ الْمَرْءِ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ غَايَةٌ وَغَايَةُ الْعِبَادَةِ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ رَاعٍ وَرَاعِي الْعَابِدِينَ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ تَاجِرٍ بِضَاعَةٌ وَبِضَاعَةُ الْمُجْتَهِدِينَ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ خَرَابٍ عِمَارَةٌ وَعِمَارَةُ الْآخِرَةِ الْعَقْلُ، وَلِكُلِّ سَفْرٍ فُسْطَاطٌ يَلْجَئُونَ إِلَيْهِ وَفُسْطَاطُ الْمُسْلِمِينَ الْعَقْلُ»(٦).

وروي عن الإمام علي عليه السلام:

«فقدُ العقل فقد الحياة، ولا يقاس إلّا بالأموات»(٧).

ثانياً: بيان صفات العقل وآياته، أو بيان جنوده التي هي في الواقع

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٤.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.
(٣) سورة الملك، الآية: ١٠.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٩.
(٥) سورة الرعد، الآية: ٥٠.
(٦) أعلام الدين، ج١، ١٧٠. ص بحار الأنوار، ج١، ص ٩٥.
(٧) شرح أصول الكافي، المازندراني، ج ١، الصفحة ٢٢٣.

إشعاعاته المختلفة، كالعلم والحلم والصبر والشكر وغيرها.

فقد جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «**اِعْرِفُوا اَلْعَقْلَ وَجُنْدَهُ وَاَلْجَهْلَ وَجُنْدَهُ تَهْتَدُوا**»(١).

وأضاف الإمام عليه السلام في حديث آخر: «**وَإِنَّمَا يُدْرَكُ اَلْفَوْزُ بِمَعْرِفَةِ اَلْعَقْلِ وَجُنُودِهِ وَبِمُجَانَبَةِ اَلْجَهْلِ وَجُنُودِهِ**»(٢).

وفي حديث ثالث عنه عليه السلام قال: «**فَكَانَ مِمَّا أَعْطَى اَلْعَقْلَ مِنَ اَلْخَمْسَةِ وَاَلسَّبْعِينَ اَلْجُنْدَ اَلْخَيْرُ وَهُوَ وَزِيرُ اَلْعَقْلِ، وَجَعَلَ ضِدَّهُ اَلشَّرَّ وَهُوَ وَزِيرُ اَلْجَهْلِ، وَاَلْإِيمَانُ وَضِدَّهُ اَلْكُفْرَ، وَاَلتَّصْدِيقُ وَضِدَّهُ اَلْجُحُودَ ....**»(٣).

ثالثاً: تعريف الجهل وجنوده، لأنّ الضدّ يعرف بضدّه(٤) كما أن الظل يكون دليلاً على الشمس.

جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام:

«**اَلْجَهْلُ صُورَةٌ رُكِّبَتْ فِي بَنِي آدَمَ فِي اَلدُّنْيَا، إِقْبَالُهَا ظُلْمَةٌ وَإِدْبَارُهَا نُورٌ، وَاَلْعَبْدُ مُتَقَلِّبٌ مَعَهَا كَتَقَلُّبِ اَلظِّلِّ مَعَ اَلشَّمْسِ**» ثمّ قال عليه السلام: «**وَأَدْنَى صِفَةِ اَلْجَاهِلِ دَعْوَاهُ بِالْعِلْمِ بِلَا اِسْتِحْقَاقٍ، وَأَوْسَطُهُ جَهْلُهُ بِالْجَهْلِ، وَأَقْصَاهُ جُحُودُهُ بِالْعِلْمِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ إِثْبَاتُهُ حَقِيقَةً نَفْيِهِ إِلَّا اَلْجَهْلُ وَاَلدُّنْيَا وَاَلْحِرْصُ،**

---

(١) الكافي، ج١، ص ٢١.

(٢) المحاسن، ج١، ص ١٩٩.

(٣) الكافي، ج١، ص ٢١. راجع كتاب المنطق الإسلامي أصوله ومناهجه، ص ١٥١ تجد فيه فصليـن مفصّلين عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حول جنود العقـل، وكذلك كتاب بحار الأنوار، ج١، كتاب العقل.

(٤) النصوص التي تفصل القول في العقل تبين أيضا جنود الجهل بالتفصيل فراجع.

فَالْكُلُّ مِنْهُمْ كَوَاحِدٍ وَالْوَاحِدُ مِنْهُمْ كَالْكُلِّ»[(١)].

رابعـــاً: بيان صفات العاقل ممّا يجعل الإنســـان الواعي يتذكر أنّها فعلاً صفات حميـــدة، ويهتدي بالتالي إلـــى ذلك النور المُـــودَع عنده، والذي يكشف له حســـن تلك الصفات. وكذلك بيان صفات الجاهل لكي يتذكّر الإنســـان قبحها، ويتعرّف على ذلك النور الذي به يبصر قبح تلك الصفات وهو العقل.

فقد سُـــئل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فقيل له: صف لنا العاقل. فقال: «**هُوَ الَّذِي يَضَعُ الشَّـــيْءَ مَوَاضِعَهُ**». قيل له: فصـــف لنا الجاهل. قال: «**قَدْ فَعَلْتُ**»[(٢)] يعني أنّه الذي لا يضع الشيء مواضعه.

وعـــن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**إِنَّ الْعَاقِلَ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَإِنْ كَانَ ذَمِيمَ الْمَنْظَرِ حَقِيرَ الْخَطَرِ، وَإِنَّ الْجَاهِلَ مَنْ عَصَى اللَّـــهَ وَإِنْ كَانَ جَمِيلَ الْمَنْظَرِ عَظِيمَ الْخَطَرِ، أَفْضَلُ النَّاسِ أَعْقَلُ النَّاسِ**»[(٣)].

وقال الإمام علّي عليه السلام: «**غَضَبُ الجاهِلِ في قَولِهِ، وغَضَبُ العاقِلِ في فِعلِهِ**»[(٤)].

«**إِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ دَلِيلٌ عَلَى ضَعْفِ عَقْلِهِ**»[(٥)].

---

(١) مصباح الشريعة، ص ٧٥-٧٦.
(٢) نهج البلاغة، حكمة ٢٣٥.
(٣) كنز الفوائد، ج١، ص ٥٥.
بحار الانوار/ ج ١ ص ١٦٠.
(٤) كنز الفوائد، ج١، ص ١٩٩.
(٥) الكافي، ج١، ص ٢٧.

«مَنْ جَانَبَ هَوَاهُ صَحَّ عَقْلُهُ»[١].

وفي حديث مفصل يبيّن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم صفات العقل وجنود الجهل، وعلامات العاقل وعلامات الجاهل، وقد شرحنا جانباً من الحديث في كتاب المنطق الإسلامي: أصوله ومناهجه.

خامساً: التذكّر بخطورة إفرازات الهوى من شهوةٍ، أو صفة نفسية كالكبر، والحقد، والعصبية، والحسد، وما أشبه.

إنّ هذه الإفرازات هي في الواقع ظلال جنود الجهل، وهي أعداء العقل، قال اللّه سبحانه: ﴿**فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾[٢].

وعن الإمام علي عليه السلام: «**يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَحْتَرِسَ مِنْ سُكْرِ الْمَالِ، وَسُكْرِ الْقُدْرَةِ، وَسُكْرِ الْعِلْمِ، وَسُكْرِ الْمَدْحِ، وَسُكْرِ الشَّبَابِ، فَإِنَّ لِكُلِّ ذَلِكَ رِيحاً خَبِيثَةً تَسْلُبُ الْعَقْلَ وَتَسْتَخِفُّ الْوَقَارَ**»[٣].

وعنه عليه السلام أيضاً: «**عَدُوُّ الْعَقْلِ الْهَوَى**»[٤]، وقال عليه السلام: «**كَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيرٍ تَحْتَ هَوَى أَمِيرٍ**»[٥] وقال عليه السلام: «**الْهَوَى شَرِيكُ الْعَمَى**»[٦].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**الْجَهْلُ فِي ثَلَاثٍ: الْكِبْرِ، وَشِدَّةِ الْمِرَاءِ،**

---

(١) كنز الفوائد، ج١، ص ١٩٩.
(٢) سورة القصص، الآية: ٥٠.
(٣) عيون الحكم والمواعظ، ص ٥٥٢.
(٤) بحار الأنوار، ج٧٥، ص ١٢.
(٥) نهج البلاغة، حكمة ٢١١.
(٦) نهج البلاغة، رسالة ٣١.

وَالْجَهْلِ بِاللَّهِ، فَأُولٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ»[١].

وروي أنّ رسـول اللّه ﷺ مرّ بمجنونٍ فقال: «**مَا لَـهُ؟**» فقيل له: إنّه مجنون، فقال ﷺ: «**بَلْ هُـوَ مُصَابٌ، إِنَّمَا الْمَجْنُونُ مَـنْ آثَرَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ**»[٢].

وعن الإمام علّي عليه السلام: «**مَنِ اسْـتَغْنَى بِعَقْلِهِ زَلَّ، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى النَّاسِ ذَلَّ**»[٣].

وقال عليه السلام: «**كَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلاً أَنْ يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ**»[٤].

سادسـاً: التذكرة بدور إبليس وسـبله في تضليل البشـر من وساوسه وهمزاتـه وغروره وفتنته، وكيـف يلبس الحق بالباطل، ويزّين للإنسـان أهـواءه. فواضح أنّ الإنسـان حينما يتقـن معرفة الثغـرات لا يقع فيها، وكثير من آيات الذكر تحذّر من خطوات الشـيطان ومكره وكيده وغروره ووساوسـه، كذلك حينما يقصّ علينا ربّنا كيف هلك السابقون بضلالهم، وكيف سوّلت لهم أنفسهم خطاياهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون، فإنّه يعلّمنا كيف نتجنّب مزالق الهاوية، ومداخل الضلال والانحراف.

قال اللّه سـبحانه: ﴿**يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَـىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ**﴾[٥].

---

(١) الاختصاص، ص ٢٤٤.
(٢) روضة الواعظين، ج١، ص ٤.
(٣) الكافي، ج١، ص ٢٩.
(٤) عيون الحكم والمواعظ، ص ٣٨٥.
(٥) سورة الحديد، الآية: ١٤.

وقال سبحانه: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1].

وعن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال لرجل يحذّره من أعدائه: «وَأَمَّا أَعْدَاؤُكَ مِنَ اَلْجِنِّ فَإِبْلِيسُ وَجُنُودُهُ، فَإِذَا أَتَاكَ فَقَالَ: مَاتَ اِبْنُكَ، فَقُلْ: إِنَّمَا خُلِقَ اَلْأَحْيَاءُ لِيَمُوتُوا وَتَدْخُلُ بَضْعَةٌ مِنِّي اَلْجَنَّةَ إِنَّهُ لَيَسُرُّنِي، فَإِذَا أَتَاكَ وَقَالَ: قَدْ ذَهَبَ مَالُكَ، فَقُلْ: اَلْحَمْدُ لِلَّهِ اَلَّذِي أَعْطَى وَأَخَذَ وَأَذْهَبَ عَنِّي اَلزَّكَاةَ فَلَا زَكَاةَ عَلَيَّ، وَإِذَا أَتَاكَ وَقَالَ لَكَ: اَلنَّاسُ يَظْلِمُونَكَ وَأَنْتَ لَا تَظْلِمُ، فَقُلْ: إِنَّمَا اَلسَّبِيلُ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ عَلَى اَلَّذِينَ يَظْلِمُونَ اَلنَّاسَ وَمَا عَلَى اَلْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ، وَإِذَا أَتَاكَ وَقَالَ لَكَ: مَا أَكْثَرَ إِحْسَانَكَ، يُرِيدُ أَنْ يُدْخِلَكَ اَلْعُجْبَ، فَقُلْ: إِسَاءَتِي أَكْثَرُ مِنْ إِحْسَانِي، وَإِذَا أَتَاكَ وَقَالَ لَكَ: مَا أَكْثَرَ صَلَاتَكَ، فَقُلْ: غَفْلَتِي أَكْثَرُ مِنْ صَلَاتِي، وَإِذَا قَالَ لَكَ: كَمْ تُعْطِي اَلنَّاسَ؟ فَقُلْ: مَا آخُذُ أَكْثَرُ مِمَّا أُعْطِي، وَإِذَا قَالَ لَكَ: مَا أَكْثَرَ مَنْ يَظْلِمُكَ، فَقُلْ: مَنْ ظَلَمْتُهُ أَكْثَرُ، وَإِذَا أَتَاكَ وَقَالَ لَكَ: كَمْ تَعْمَلُ، فَقُلْ: طَالَمَا عَصَيْتُ»[2].

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٦.

(٢) تحق العقول، ص ٢٣.

خلاصة القول

لو لم يخطئ الإنسان في منهج معرفة العقل، ولم يتبع سبل الضلال التي اتّبعها الفلاســفة في تعريفه بالتصوّرات التي هي موهومات تحجبنا عنه، وإنّما اتّبع منهج الوحي في معرفته بآياته، بحيث يجعل الحقائق التي تضاء بنور العقل والعلم دليله إليه ولا يجعلها هي العقل، وهكذا يجعل الصفات التي يتحلّى بها العاقل دليلاً على العقل، ولا يزعم أنّها بذاتها العقل.

أقول: لو لم يخطئ الإنسان في المنهج فإنّه يكتشف عقله بعقله، ويزداد ثقةً به وبأحكامه، ويؤتى فرقاناً يميّز بين الوهم والوسوســة والظنّ والهوى والجهل، وبين العلم والعقل والحكمة والرشد[1].

---

(١) هذه هي البصيرة التي بسطناها في كتابنا المنطق الإسلامي أصوله ومناهجه.

3

شرح خطبة الإمام الرضا عليه السلام في معرفة التوحيد

شرح خطبة الإمام الرضا عليه السلام في معرفة التوحيد

ما هو المذهب الصحيح الــذي يهدينا إليه العقــل، ويذكّرنا به القرآن والنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم السلام؟ إنّه يتلخص في النقاط التالية:

١- أنّ العالَم المحيط بنا حق، وليس مجرد خيال.

٢- أنّ لهذا العالم ربّاً خلقه وقدّره ودبّر أموره.

٣- أنّ اللّه غَيْر خلقه وخلقه غَيْر اللّه، وأنّهما سمتان مختلفتان بذاتهما، فبينما الخلق عاجز ومحدود ومتغيّر وعدمــي ومظلم الذات، فإنّ الخالق قادر لا متناه وقيّوم وهو نور السموات والأرض.

ومعلوم الفرق الكبير بين هذه النظرة وبين النظريات الفلسفية الأحادية التــي لا تعترف إلّا بنوع واحد مــن الوجود، حيث تزعــم أنّ الكثرة التي نشاهدها في الموجودات، والتعددية التي نؤمن بها بين الخالق والمخلوق، ما هي إلّا سوى مراتب وتطوّرات لذات الوجود الواحد.

حيث إنّنا نرى الاختلاف بين الخالق والمخلوق ذاتياً وكبيراً وحاســماً، ولا يمكن أن يصبح المخلوق خالقاً، أو الحادث قديماً، أو المحدود مطلقاً.

١- فالله سبحانه: نور أزلي، لا تحويه الحدود، ولا تقيّده القيود، وذاته

الكمال المطلق، فبذاته: عالم حي قيوم وقادر، وهو الحق بذاته، أحديٌّ لا شريك له ولا شبيه.

٢- والمخلوق: ذات مظلم بذاته، محدود، غير مستقل بنفسه، وجوده باللّه، وواقعيته باللّه، وكمالاته باللّه.

والنصوص التي تدلّنا على هذه الحقائق لا تحصى في الكتاب والسنة، بل آيات الذكر الحكيم وكلمات الهداة المعصومين عليهم السلام كلّها شاهدة عليها، لو لم نحمّلها تفسيرات متكلّفة بهدف الجمع بينها وبين آراء الفلاسفة قسراً وزوراً.

وفيما يلي نذكر بعضاً قليلاً منها على أن نسترشد بها إلى سائر النصوص المباركة.

أوّلاً: حين نسمع كلمة (الحق) يتبادر إلى أذهاننا ما يعاكس ذلك، وهو العدم واللّا واقعية واللّا تحقق، والآيات القرآنية تذكّرنا بأنّ السماوات والأرض قد خلقت بالحق وأنّ خلقها ليس باطلاً، يقول ربّنا سبحانه:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾[2]

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً﴾[3].

---

(١) سورة الدخان: الآية: ٣٨- ٣٩.

(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٣.

(٣) سورة ص، الآية: ٢٧.

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(١).

ثانياً: إنّ لفظة القيّوم التي تتكرر في الآيات صريحة في أنّ باللّه قيام السموات والأرض، وأن لولا إذنه إمساكه إياهما إذاً لزالتا، قال ربّنا سبحانه:

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَآءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾(٢).

﴿اللَّهُ لآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ..... وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾(٣).

﴿وَيُمْسِكُ السَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى الارْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾(٤).

ثالثاً: إنّ آيات التسبيح والتقديس -وهي بالمئات في القرآن الكريم- صريحة في أنّ اللّه غَيْر خلقه، وخلقه غَيْره، وليس بينه وبين خلقه تشابه، وفي أنّه ليس كمثله شيء، وأنّه تعالى عن وصف القائلين، وأنّه لا تدركه الأبصار، وأنّه ليس له كفواً أحد، وأنّه الحي، وأنه لا إله إلّا هو، فالآيات كلّها صريحة في أنّه خلوٌ من خلقه وخلقه خلو منه، سبحانه وتعالى.

قال ربّنا سبحانه:

﴿وَتَرَى الْمَلَآئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾(٥)

﴿وَاذْكُر رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾(٦).

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.
(٢) سورة الروم، الآية: ٢٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.
(٤) سورة الحج، الآية: ٦٥.
(٥) سورة الزمر، الآية: ٧٥.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ٤١.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾[١].

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[٢].

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٣].

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾[٤].

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾[٥].

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٦].

وهكذا يذكّرنا القرآن أنّ الملائكة -وهم عباد الرحمن المكرمون- يسبحون بحمد ربّهم، إيذاناً بأنّهم ليسوا بنات اللّه ولا منفصلين عن ذاته وسبحانه.

ويأمرنا القرآن بأن نسبّح اللّه بالعشي والإبكار حتى لا نشبّهه بخلقه، وحتى تبعد عنه صفة المخلوقين.

ويقدّس القرآنُ ربَّ العزة عن صفة الواصفين الذين ينظرون إلى أسماء ربّهم بمنظار أنفسهم، ويشبّهونه سبحانه بخلقه، ويذكّرنا بأنّ اللّه بيده ملكوت كلّ شيء، فهو الذي يملك ذات كلّ شيءٍ، فإذاً؛ لا يمكن أن يكون مثل أيّ شيء.

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٥٨.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.
(٣) سورة يس، الآية: ٨٣.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٢٦.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.
(٦) سورة الشورى، الآية: ١١.

ويقدّس الذكرُ الحكيم ربَّ العالمين عن التسلسل الهرمي في الوجود، أو بتعبير آخر الولادات المتسلسلة (كالعقول العشرة)، ويتبيّن أنّ كلّ ذوي العقول هم عباد مكرمون.

ويذكّرنا: بأن كلّ شيء ينادي بعجزه، وبأنّه لا يشبه خالقه، وكلّ شيء يسبّح بحمد اللّه بالرغم من أنّنا لا نفقه تسبيحهم.

ويقرّر ببلاغة نافذة أنّه ليس كمثله شيء، وكفى به بياناً.

وكلمات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والمعصومين من أهل بيته عليهم السلام تفسّر آيات الذكر هذه ببيان بليغ، وتذكّر بحقائق اليقين، وأنّ اللّه تعالى أحد صمد ليس له كفو وليس كمثله شيء، وإليك طائفة منها:

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال:

«**مَا عَرَفَ اَللَّهَ مَنْ شَبَّهَهُ بِخَلْقِهِ**»[1].

وجاء في حديث عن الإمام علي عليه السلام:

«**تَوْحِيدُهُ تَمْيِيزُهُ مِنْ خَلْقِهِ، وَحُكْمُ اَلتَّمْيِيزِ بَيْنُونَةُ صِفَةٍ لاَ بَيْنُونَةُ عُزْلَةٍ**»[2].

وهكذا يصرّح الإمام علي عليه السلام بأنّ هناك سنخين في عالم التحقّق: سنخ الخالق وسنخ المخلوق، وهما لا يتشابهان، ولعل مراد الإمام علي عليه السلام بقوله: «**بَيْنُونَةُ صِفَةٍ**» أنّ أسماء اللّه تعالى وصفاته مختلفة عن أسماء وصفات مخلوقيه، ممّا يدلّ على أنّهما نوعان مختلفان بالذات.

وجاء في حديث مأثور عن الإمام الباقر عليه السلام:

---

(١) التوحيد، ص ٤٧.

(٢) الاحتجاج، ج١، ص ٢٠١.

«إِنَّ اَللَّهَ خِلْوٌ مِنْ خَلْقِهِ وَخَلْقَهُ خِلْوٌ مِنْهُ، وَكُلُّ مَا وَقَعَ عَلَيْهِ اِسْمُ شَيْءٍ فَهُوَ مَخْلُوقٌ مَا خَلاَ اَللَّهَ»(١).

وجاء في حديث مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام إنه قال:

«مَنْ شَبَّهَ اَللَّهَ بِخَلْقِهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ، إِنَّ اَللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لاَ يُشْبِهُ شَيْئاً وَلاَ يُشْبِهُهُ شَيْءٌ، وَكُلُّ مَا وَقَعَ فِي اَلْوَهْمِ فَهُوَ بِخِلاَفِهِ»(٢).

وتبيّن بعض النصوص المفصّلة أدلّة هذه الحقيقة، ونذكر نصّاً واحداً، منها، وهو مستهلّ خطاب الإمام الرضا عليه السلام في حشد من علماء ذلك العصر الذي تميّز بانتشار الأفكار الفلسفية المنحرفة، ويوضّح الإمام -عبر كلمات بليغة ومفصّلة- حقيقةَ مباينة الخالق عن الخلق بذاته سبحانه، وأنّهما نوعان لا يقاس الواحد بالآخر، وأنّ وهم البشر الذي يريد أن يشبّه خالقه بنفسه ضلالة كبرى.

دعنا نقرأ معاً خطاب الإمام الرضا عليه السلام ونتأمّل فقراته، وننهل من علمه(٣): فقال له بنو هاشم: يا أبا الحسن اصعد المنبر وانصب لنا علماً نعبد اللّه تعالى عليه، فصعد عليه السلام المنبر، فقعد ملياً لا يتكلّم مطرقاً، ثمّ انتفض انتفاضة واستوى قائماً وحمد اللّه وأثنى عليه وصلى على نبيّه

(١) الكافي، ج١، ص ٨٢. التوحيد، ص ١٠٥.

(٢) التوحيد، ص ٨٠.

(٣) جاء في كتاب التوحيد، ص ٣٤، وفي كتاب عيون أخبار الرضا، ج١، ص ١٤٩. حديثٌ مأثور عن القاسم بن أيوب العلوي: إنّ المأمون العباسي لمّا أراد أن يستعمل الرضا عليه السلام جَمَعَ بني هاشم فقال: إنّي أريد أن استعمل الرضا على هذا الأمر من بعدي، فحسده بنو هاشم وقالوا: نوّلي رجلاً ليس له بصر(ولعل الصحيح بصيرة) بتدبير الخلافة! فابعث إليه يأتِنا فترى من جهله ما تستدلّ به عليه، فبعث إليه فأتاه. وساق الحديث حسبما ننقله في المتن.

وأهل بيته ثمّ قال:

أوّل معرفة الله

«أَوَّلُ عِبَادَةِ اَللَّهِ مَعْرِفَتُهُ[١]، وَأَصْلُ مَعْرِفَةِ اَللَّهِ تَوْحِيدُهُ، وَنِظَامُ تَوْحِيدِ اَللَّهِ نَفْيُ اَلصِّفَاتِ عَنْهُ[٢]، لِشَهَادَةِ اَلْعُقُولِ أَنَّ كُلَّ صِفَةٍ وَمَوْصُوفٍ مَخْلُوقٌ[٣]، وَشَهَادَةِ كُلِّ مَخْلُوقٍ أَنَّ لَهُ خَالِقاً لَيْسَ بِصِفَةٍ وَلاَ مَوْصُوفٍ[٤]، وَشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ وَمَوْصُوفٍ بِالاِقْتِرَانِ، وَشَهَادَةِ اَلاِقْتِرَانِ بِالْحَدَثِ، وَشَهَادَةِ اَلْحَدَثِ بِالاِمْتِنَاعِ مِنَ اَلْأَزَلِ اَلْمُمْتَنِعِ مِنَ اَلْحَدَثِ[٥]، فَلَيْسَ اَللَّهَ عَرَفَ مَنْ عَرَفَ بِالتَّشْبِيهِ ذَاتَهُ، وَلاَ إِيَّاهُ وَحَّدَ مَنِ اِكْتَنَهَهُ، وَلاَ حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ، وَلاَ بِهِ صَدَّقَ مَنْ نَهَّاهُ، وَلاَ صَمَدَ صَمْدَهُ مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ، وَلاَ إِيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ، وَلاَ لَهُ تَذَلَّلَ مَنْ بَعَّضَهُ، وَلاَ إِيَّاهُ أَرَادَ مَنْ تَوَهَّمَهُ».

---

(١) فمن لا يعرف الله كيف يعبده؟ علماً بأنّ عبادة القلوب بالتوجّه إلى اللّه والتسليم له أعظم من عبادة الجوارح.

(٢) لعل مراده بكلمة (نظام) ما يؤدي إلى توحيد اللّه، وبتعبير آخر: منهج علم التوحيد.

(٣) فالصفة الزاهدة على الموصوف، دليل التركيب، والعبارات التالية شرح لهذه العبارة فيما يبدو.

(٤) لعلّ مراده على ما بيّنه العلامة المجلسي بقوله في تفسير هذه الفقرة: أنّ كلّ صفة وموصوف لا بد أن يكونا مخلوقين، إذ الصفة محتاجة إلى الموصوف لقيامها به، وهو ظاهر، والموصوف محتاج إلى الصفة في كماله، والصفة غيره وكلّ محتاج إلى الغير ممكن، فلا يكون شيء منهما واجباً، ولا المركب منهما، فثبت احتياجهما إلى علّة ثالثة، ليس موصوف ولا صفة وإلّا لعاد المحذور، بحار الأنوار، ج٤، ص ٢٣١.

(٥) لعل مراده أن الاقتران دليل التركيب، والتركيب دليل الحدوث، أو الحاجة إلى من يركب المركب، وهو بالتالي دليل واضح على أنّه مصنوع مخلوق، إن علمنا بتركيب الأشياء هو الذي هدانا إلى حاجتها إلى خالق غير مركب، فكيف نفترض التركيب في الخالق.

المنهج الصائب لمعرفة اللّه تعالى

«كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ[١] وَكُلُّ قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَعْلُولٌ[٢] بِصُنْعِ اَللَّهِ يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ[٣]، وَبِالْعُقُولِ يُعْتَقَدُ مَعْرِفَتُهُ، وَبِالْفِطْرَةِ تَثْبُتُ حُجَّتُهُ[٤]».

الحجاب الذاتي بين الخالق والمخلوق

«خَلْقُ اَللَّهِ اَلْخَلْقَ حِجَابٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، وَمُبَايَنَتُهُ إِيَّاهُمْ مُفَارَقَتُهُ إِنِّيَّتَهُمْ[٥] وَاِبْتِدَاؤُهُ إِيَّاهُمْ دَلِيلُهُمْ عَلَى أَنْ لاَ اِبْتِدَاءَ لَهُ لِعَجْزِ كُلِّ مُبْتَدَأٍ عَنِ اِبْتِدَاءِ غَيْرِهِ».

---

(١) الشيء الذي يعرف ذاته لا يمكن أن يكون صانعاً إذ العلم يحيط به بينما الخالق لا محدود ولا متناهٍ فلا يحيط بذاته علم، ويبدو أن مراده من كلمة(بنفسه) هو(ذاته).

(٢) (الشيء الذي يقوم بغيره، ويستوي بسواه، يتكئ على ما عداه، فإنه معلول، ولا يكون بالتالي خالقاً، ومن أجل أن نعرف اللّه لابد أن نقدسه من معرفة ذاته، ونسبحه من القيام بغيره.

- وحسبما يقول العلامة المجلسي: فإنّ هذه الجملة تنفي نظرية الحلول الصوفية (بحار الأنوار، ج٤، ص ٢٣٣).

(٣) بعد أن نفى الإمام المعرفة بالتشبيه والاكتناه، أثبت المعرفة بالآيات.

(٤) الأداة التي تحفظ معرفة اللّه هي العقل بينما حجة اللّه تثبت بفطرة التوحيد التي فطر اللّه الخلق عليها في عالم الذر والميثاق وهي مقدمة زمنياً على العقول إذ تثبت الفطرة حجة اللّه تعالى، ثمّ تعتقد العقول معرفته.

(٥) لأن اللّه تعالى خلق الخلائق، ولأنّه ابتدعهم، ووهب الوجود له فإنّه محتجب عنهم حيث إنّه كان الخالق، وكانوا مخلوقين فهما إذاً سنخين بالذات، نوعين متمايزين بأنفسهما.

- يقول العلامة المجلسي وهو يشرح هذه الفقرة: (أي كونه خالقاً وأن الخالق لا يكون بصفة المخلوق، ويكون مبائناً له في الصفات،(كون ذلك) صار سبباً لاحتجابه عن الخلق فلا يدركونه بحواسهم ولا عقولهم، والحاصل: إن كماله ونقص مخلوقيه حجاب بينه وبينهم). (بحار الأنوار، ج٤، ص ٢٣٣).

- وهكذا: «مفارقة اللّه لخلقه ليست بالمكان بل بالأبنية والذاتية، فهو من سنخ وهم من سنخ آخر».

الأدوات دليل العجز

«وَ أَدْوُهُ إِيَّاهُمْ دَلِيلٌ عَلَى أَنْ لَا أَدَاةَ فِيهِ [١]، لِشَهَادَةِ الْأَدَوَاتِ بِفَاقَةِ الْمُتَأَدِّينَ»[٢].

أسماؤه تعبير

«وَأَسْمَاؤُهُ تَعْبِيرٌ، وَأَفْعَالُهُ تَفْهِيمٌ، وَذَاتُهُ حَقِيقَةٌ، وَكُنْهُهُ تَفْرِيقٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ[٣]، وَغَيُورُهُ تَحْدِيدٌ لِمَا سِوَاهُ [٤]، فَقَدْ جَهِلَ اللَّهَ مَنِ اسْتَوْصَفَهُ، وَقَدْ تَعَدَّاهُ مَنِ اشْتَمَلَهُ[٥]، وَقَدْ أَخْطَأَهُ مَنِ اكْتَنَهَهُ، وَمَنْ قَالَ: كَيْفَ؟ فَقَدْ شَبَّهَهُ[٦]، وَمَنْ قَالَ: لِمَ؟ فَقَدْ عَلَّهُ، وَمَنْ قَالَ: مَتَى؟ فَقَدْ وَقَّتَهُ، وَمَنْ قَالَ: فِيمَ؟ فَقَدْ ضَمَّنَهُ، وَمَنْ قَالَ: إِلَامَ، فَقَدْ نَهَّاهُ، وَمَنْ قَالَ: حَتَّامَ، فَقَدْ غَيَّاهُ، وَمَنْ غَيَّاهُ فَقَدْ

---

(١) أي أنّ الرب جعل الخلق محتاجاً أي الأداة، كان ذلك دليل على أنّه لا أداة له سبحانه.

(٢) لعل مراده من يملك الأدوات.

(٣) فأسماء اللّه لا تدل على وجود أجزاء له، بل إنّما هي تعبير عن ذات واحد، أحد صمد، كما أن أفعاله تفهمنا بأنه الخالق الرازق.

وهكذا ذاته حقيقة، أي حق يستحق أن يسمى حقاً، لأنّه لا يقوم بغيره ولا يبتدئ بسواه سبحانه.

أما كنهه فهو إبعاده عن مشابهة المخلوقين.

(٤) أي أن فهم غيرية اللّه تعالى، ومغايرته هو تحدي ما سوى اللّه تعالى، وفهم عبودية ما سوى اللّه ومخلوقيته وعجزه، وهكذا كلما تعمقنا في فهم محدودية الخلق وعجزه وضعفه، كلما عرفنا اللّه سبحانه.

(٥) فمن طلب وصف كنه اللّه تعالى ومعرفة كيفيته فقد جهل اللّه تعالى، لأنه لا يعرف كنهه ولا كيف له، ومن أحاط برأيه- علماً بربه فقد تجاوز إلى غيره، فليس اللّه اشتمل إنما اشتمل مخلوقاً والاشتمال هو التلفف بالثوب.

(٦) فيما يلي تأكيد على الفقرات السابقة وأنّ أسئلة مثل كيف، ولم ومتى، وفيم، وإلامَ، وحتّام، وما أشبه تليق بالمخلوقين، أمّا الخالق فهذه الأسئلة لا تناله، لأنّه لا شبه له يعرف كيفه، ولا علّة له ولا وقت ولا جزء ولا نهاية ولا غاية.

غَايَاهُ، وَمَنْ غَايَاهُ فَقَدْ جَــزَّأَهُ ، وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ وَصَفَهُ، وَمَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ أَلْحَدَ فِيهِ»[١].

لا يتغيّر بتغيير المخلوقين

«لَا يَتَغَيَّرُ اَللَّهُ بِانْغِيَارِ اَلْمَخْلُوقِ، كَمَا لَا يَنْحَدُّ بِتَحْدِيدِ اَلْمَحْدُودِ»[٢].

لا تعطيل ولا تشبيه

«أَحَدٌ لَا بِتَأْوِيلِ عَدَدٍ، ظَاهِرٌ لَا بِتَأْوِيلِ اَلْمُبَاشَرَةِ، مُتَجَلٍّ لَا بِاسْتِهْلَالِ رُؤْيَةٍ، بَاطِــنٌ لَا بِمُزَايَلَةٍ، مُبَايِنٌ لَا بِمَسَــافَةٍ، قَرِيبٌ لَا بِمُدَانَاةٍ، لَطِيفٌ لَا بِتَجَسُّــمٍ، مَوْجُــودٌ لَا بَعْدَ عَدَمٍ، فَاعِلٌ لَا بِاضْطِرَارٍ[٣]، مُقَــدِّرٌ لَا بِجَوْلِ فِكْرَةٍ، مُدَبِّرٌ لَا

(١) فمن جعل اللّه تعالى غاية، جعله يشترك مع المخلوق في الغاية (غاياه) وصح أن يقال: إن له غايته قبل غاية فلان وبعد فلان، وهكذا لم يعرفه ســبحانه، لأنّه تقدس عن الشــبه بالمخلوقين.
ويبدو أنّ هناك علاقة بين وجود الغاية للشيء ووجود أجزاء له، كما تشير إليه كلمة الإمام (ومن غاياه فقد جزأه) فما هي تلك العلاقة؟ نقول باختصار: إنّ وجود نهاية للشيء دليل اســتهلاك الزمن له، فكلما مر هزيع منه فنى بقدره من ذاته، وهذا لا يكون إلّا في الشيء ذي الأجزاء، وهذا دليل الخلق وليس الخالق.

(٢) فهو يغير ولا يتغير، ويحدد ولا يتحدد، فتغيرات المخلوقين ليست بحيث تغيره، وفعله في تحديد المحدود لا يحدده.

(٣) لابد أن نخرج الرب عن حدّي التعطيل والتشبيه، ونعرفه بالإثبات والتنزيه، فإذا قلنا: إنّه أحد، نتذكر أنّه ليس كأيّ واحد يمكن أن يقارن بالثاني والثالث، بل هو واحد لا بتأويل عدد.
وإذا قلنا: إنّه ظاهر، فلس بمعنى الظهور الذي يباشره النظر ويحيط به شيء غيره، فليس كظهور نور الشمس على حائط الدار يستوعبه الجدار، وتباشره العين، كلا.
وإذا قلنا بأنّه سبحانه (متجلٍ) فإننا لا نثبت له التجلي الذي نعرفه في المخلوقات، حيث يعني التجلي فيها نظرة العين، واستهلاك الرؤية.
كما أنّ ربنا باطن، ولكن ليس كما يُصبح المخلوق باطناً فينفصل عن غيره، بل لأنّ كنهه خفي وهو ليس من سنخ مخلوقاته.

بِحَرَكَةٍ، مُرِيدٌ لَّا بِهَمَامَةٍ، شَـاءٍ لَّا بِهِمَّةٍ[١]، مُدْرِكٌ لَّا بِمَجَسَّةٍ، سَمِيعٌ لَّا بِآلَةٍ، بَصِيرٌ لَّا بِأَدَاةٍ[٢]».

تنزيه اللّه عن الحدود

«لَا تَصْحَبُـهُ اَلْأَوْقَـاتُ، وَلَّا تَضَمَّنُهُ اَلْأَمَاكِنُ، وَلَّا تَأْخُذُهُ اَلسِّـنَاتُ، وَلَّا تَحُدُّهُ اَلصِّفَاتُ، وَلَّا تُفِيدُهُ اَلْأَدَوَاتُ[٣]، سَبَقَ اَلْأَوْقَاتَ كَوْنُهُ، وَاَلْعَدَمَ وُجُودُهُ، وَاَلِابْتِدَاءَ أَزَلُهُ»[٤].

وهو مباين عن خلقه، ولكن ليس كمباينة المخلوقات، تفصل بينها المسافات، بل مباينته سـبحانه مباينة ذاتية، كما أن قربه لا يعني قرب المسافة، أما لطفه فليس كلطف الجسم الرقيق، لأنه لا تجسـم فيه، بل لأنه يصنع الشـيء اللطيف ويفعلـه ووجود الرب ليس بمعنى ظهوره بعد الخفاء او تحققه بعد العدمية.

وفاعليته أيضاً، ليست كفاعلية المخلوقين حيث يحتاجون إلى الأدوات والآلات، وهو غنـي عنها، وهم إنما يقومون بفعل لدرء خطر أو جلـب نفع، بيد أنّ ربنا يفعل بحكمة، ولكن من دون حاجة في نفسه إلى الفعل سبحانه.

وهكذا تشابه الألفاظ بين الخالق والمخلوق مع اختلاف في المعاني.

(١) اسـتمراراً لبيان الاختلاف الذاتي بين الخالق والمخلوق، وإخراجه سبحانه عن حدي التعطيل والتشبيه، بيّن الإمام الرضا أنّه سبحانه (يقدر) ولكن ليس بمثل تقديرنا الذي يتم بعـد تتجول الفكر، (ويدبر) ولكن ليس كمثلنا حين ندبر بحركة وننفذ تقديرنا بالحركة. (ويريد) ليس بالطريقة التي نريد، حيث نحدث أنفسـنا بالأمر قبل اتخاذ القرار بشـأنه ونتردد عادة فيه، وهذه هي (الهمامة) أي الاهتمام والتردد.

أما مشيئته فليست بعد القصد الحادث ولا بحثاً عن كمال.

(٢) وهكذا، ربّنا إدراكه بعلمه وليس بالحس والجس، وإنّه سميع ليس بالأذن وبصير لا بعين.

(٣) تعالـى ربّنا عن الحـدود الزمانية والمكانية، والصفاتية والأدواتيـة، فهو خالق الزمان والمكان والصفات، فكيف ينحد بحدودها، سبحانه والسنة بداية النوم.

وفي بعض النسـخ لا تفيده الأدوات، والمعنى متشـابه مع ما فـي المتن من (لا تفيده) فالذي يستفيد من شيء يتقيد به.

(٤) فإذا سألت متى كان ربّنا؟ الجواب: متى لم يكن، فكونه قد سبق الوقت والوقت حادث

عجز الخلائق دليل كمال الخالق

«بِتَشْعِيرِهِ اَلْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لَا مَشْعَرَ لَهُ، وَبِتَجْهِيرِهِ اَلْجَوَاهِرَ عُرِفَ أَنْ لَا جَوْهَرَ لَهُ[١]، وَبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ اَلْأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لَا ضِدَّ لَهُ، وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ اَلْأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لَا قَرِينَ لَهُ[٢]، ضَادَّ اَلنُّورَ بِالظُّلْمَةِ، وَاَلْجَلَايَةَ بِالْبُهَمِ[٣]، وَاَلْجُسُوءَ بِالْبَلَلِ[٤]، وَاَلصَّرْدَ بِالْحَرُورِ[٥]، مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا، مُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا، دَالَّةً بِتَفْرِيقِهَا عَلَى مُفَرِّقِهَا، وَبِتَأْلِيفِهَا عَلَى مُؤَلِّفِهَا[٦]، ذَلِكَ قَوْلُهُ

وهو سبحانه أزلي، وهكذا العدم إنّما يخالف الموجود الذي خلقه اللّه، وليس خالق الموجودات السابق بأزليته للعدم، والأزلي لا ابتداء له، بلى، إنّه يبتدئ غيره، وهكذا وجوده سبق الابتداء.

(١) كلّما تعمقنا في طبيعة المخلوقين استطعنا أن نعرف أسماء الخالق وصفاته سبحانه، كما قال الإمام الرضا في فقرة سابقة من هذا الحديث (وَكُنْهُهُ تَفْرِيقٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ).
ويجري السياق هنا للتذكرة بهذه الحقيقة، وهي أن عجز الخلائق دليل على كمال خالقها.
فلأنّ الخلق لا يشعر من دون أدوات، نعرف عجزهم ومحدوديتهم وبالتالي: حاجتهم إلى خالق لا مشعر له.
ومن جهة أخرى قال العلامة المجلسي وهو يشرح الفقرة التالية: قوله وبتجهيره الجواهر، أي بتحقيق حقائقها، وإيجاد ماهياتها عرف إنها ممكنة، وكل ممكن محتاج إلى مبدأ فمبدأ المبادئ لا يكون حقيقة من هذه الحقائق(بحار الأنوار، ج٤، ص ٢٣٩).

(٢) لكل شيء ضد ولكل شيء قرين، وهذا دليل العجز والنقص، فإذا كان الشيء قادراً لحذف ضده ولو كان كاملاً لما احتاج إلى تكميله بقزين، والله ليس له كفو أحد.

(٣) النور محدود بالظلمة، والظلمة تخترق بالنور فهما إذاً عاجزان، والظهور(الجلاية) يخالف (البهم).

(٤) الجسوء هو الجلد الخشن والماء الجامد.

(٥) البرد والحر.

(٦) أن كلّ مخلوق زوج يحتاج إلى كفوه ويحتاجه كفوه، وهذا دليل عجزه وحاجته إلى رب لا كفو له أبداً.
ولعل هذا هو معنى استدلال الإمام بالآية الكريمة، وبالذات ختام الآية (لعلكم تذكرون) أي جعلنا الأشياء أزواجاً لعلكم تذكرون بحاجتها إلى من يؤلفها، ولا يحتاج إلى كفو.

جَلَّ وَعَزَّ: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[١]».

الزمان دليل أزليّة خالقه

«فَفَرَّقَ بِهَا بَيْنَ قَبْلٍ وَبَعْدٍ لِيُعْلَمَ أَلَّا قَبْلَ لَهُ وَلَا بَعْدَ[٢]، شَاهِدَةً بِغَرَائِزِهَا أَلَّا غَرِيزَةَ لِمُغَرِّزِهَا دَالَّةً بِتَفَاوُتِهَا أَلَّا تَفَاوُتَ لِمُفَاوِتِهَا، مُخْبِرَةً بِتَوْقِيتِهَا أَلَّا وَقْتَ لِمُوَقِّتِهَا، حَجَبَ بَعْضَهَا عَنْ بَعْضٍ لِيُعْلَمَ أَلَّا حِجَابَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا مِنْ غَيْرِهَا[٣]، لَهُ مَعْنَى اَلرُّبُوبِيَّةِ إِذْ لَا مَرْبُوبٌ، وَحَقِيقَةُ اَلْإِلٰهِيَّةِ إِذْ لَا مَأْلُوهٌ، وَمَعْنَى اَلْعَالِمِ وَلَا مَعْلُومٌ، وَمَعْنَى اَلْخَالِقِ وَلَا مَخْلُوقٌ[٤]، وَتَأْوِيلُ اَلسَّمْعِ وَلَا مَسْمُوعٌ، لَيْسَ مُذْ خَلَقَ اِسْتَحَقَّ مَعْنَى اَلْخَالِقِ، وَلَا بِإِحْدَاثِهِ اَلْبَرَايَا اِسْتَفَادَ مَعْنَى اَلْبَارِئِيَّةِ، كَيْفَ وَلَا تُغَيِّبُهُ مُذْ، وَلَا تُدْنِيهِ قَدْ، وَلَا يَحْجُبُهُ لَعَلَّ، وَلَا يُوَقِّتُهُ مَتَى، وَلَا يَشْتَمِلُهُ حِينٌ، وَلَا تُقَارِنُهُ مَعَ، إِنَّمَا تَحُدُّ اَلْأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا، وَتُشِيرُ اَلْآلَةُ إِلَى نَظَائِرِهَا، وَفِي اَلْأَشْيَاءِ يُوجَدُ أَفْعَالُهَا، مَنَعَتْهَا مُذُ اَلْقِدْمَةَ، وَحَمَتْهَا قَدُ اَلْأَزَلِيَّةَ، وَجَنَّبَتْهَا لَوْلَا اَلتَّكْمِلَةَ[٥]، اِفْتَرَقَتْ فَدَلَّتْ عَلَى مُفَرِّقِهَا، وَتَبَايَنَتْ فَأَعْرَبَتْ عَنْ مُبَايِنِهَا،

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٤٩.

(٢) فاعلية الزمان في الأشياء تدل على إنها قد ابتدئت، وهي بالتالي بحاجة من ابتدأها، وهو لا بداية له ولا فاعلية للزمان فيه.

(٣) احتجاب بعض الأشياء عن بعضها دليل على عجزها ومحدوديّة أثرها، وأن خالق الجميع لابد أن تشمل قدرته كلّ الأشياء، وإلّا يحتجب عنها إلا بتعاليه عنها واختلاف جوهرها عنه.

(٤) لم يكتسب الرب واقع الربوبية من خلقه، لأنّ له الكمال المطلق قبل خلق المخلوقين، وبذلك الكمال خلقهم، وهكذا الإلوهية والعلم، فهو إله قبل أن يخلق الخلق، وعالم بهم قبل الخلق إذ خلقهم بعلمه، وهكذا الصفات التالية.

(٥) إن أي تأثير من الخلق على الخالق محال، وإن أي كمال يضاف إليه من خلقه محال، وأي تغيير فيه محال، لأنّه له الكمال المطلق والأسماء الحسنى، وهكذا لم يستحق معنى الخلق ابتداءً من خلقه، بل دائماً وأبداً، لأنّه تعالى عن الزمان، فلا كلمة (مذ) التي هي

بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ، وَبِهَا احْتَجَبَ عَنِ الرُّؤْيَةِ[١]، وَإِلَيْهَا تَحَاكَمَ الْأَوْهَامُ[٢]، وَفِيهَا أُثْبِتَ غَيْرُهُ، وَمِنْهَا أُنِيطَ الدَّلِيلُ، وَبِهَا عَرَّفَهَا الْإِقْرَارَ».

منهج معرفة الله

«بِالْعُقُولِ يُعْتَقَدُ التَّصْدِيقُ بِاللَّهِ، وَبِالْإِقْرَارِ يَكْمُلُ الْإِيمَانُ بِهِ[٣]، اَ دِيَانَةَ إِلَّا

تحجبه عن الأشياء التي لما توجد، لأنّ كلّ شيء عنده سواءً، سابقها ولاحقها، ولا كلمة (قد) التي هي للتقريب والتحقيق تقرب الأشياء إلى علمه، لأنّه أحاط بكل شيء علماً، ولا لفظة (لعل) التي هي للترجّي صادقة في الرب الذي يعلم بكلّ شيء، ويقدر على كلّ شيء. ولا كلمة (متى) التي هي للتوقيت، تعني عند الربّ الوقت، لأنّ اللّه تعالى عن الزمان والوقت، وهكذا لفظة (حيث) للزمان أو (مع) للمقارنة صادقة في الذي لا يقارن شيئاً زمانياً، لأنّ تأثير المخلوقات إنّما يكون في أنفسها، وليس في خالقها المتعالي عنها المقتدر عليها سبحانه.

ولأنّ اللّه قديم؛ فإنّه لا يصح فيه (مذ) ولأنّه أزلي فلا تصدق فيه (قد)، ولأنّه الكمال المطلق فلا يصدق فيه (لولا) الذي يربط شيئاً بشيء.

(١) كيف تجلّى الربّ تعالى لنا؟ الجواب: بما في الأشياء من دلائل الخلقة، بسبب محاصرة الحدود المكانية والزمانية وغيرها لها وهي دليل على أنّها مصنوعة مخلوقة، ودليل أيضاً على أنّ حواسنا وعقولنا منها ومصممة لعالمها، وليست بقادرة على تجاوزها إلى خالقها، بل غير قادرة على الإحاطة علماً بكنهها، فكيف بذات خالقها سبحانه؟ ولعل ذلك معنى قوله: «وَبِهَا احْتَجَبَ عَنِ الرُّؤْيَةِ».

(٢) قال العلامة المجلسي وهو يشرح الفقرات هذه: وبها أي بالعقول احتجب عن الرؤية، لأنّ الحاكم بامتناع رؤيته هو العقل، وإلى العقل تتحاكم الأوهام عند اختلافها. وقوله «وَفِيهَا أُثْبِتَ غَيْرُهُ» أي كلّ ما يثبت ويرتسم في العقل فهو غيره تعالى. (بحار الأنوار، ج٤، ص ٢٤٤).

ويبدو أنّ العلامة المجلسي قدّس سرّه يرى أنّ ضمير (بها) يعود إلى المشاعر أو العقول، بينما الضمير لا بد أن يعود إلى أقرب كلمة إليه، وهي هنا المخلوقات، وعلى هذا المعنى تبقى جملة «وَإِلَيْهَا تَحَاكَمَ الْأَوْهَامُ» غامضة لديّ.

(٣) في البدء تشير الفطرة إلى وجود اللّه، ولكن العقل يركّز هذه الرؤية ويجعلها عقيدة، ومن ثمّ يأتي الإقرار والتسليم للّه ليكمل المسيرة، فيوصل المرء إلى مرحلة الإيمان باللّه

بَعْدَ مَعْرِفَةٍ، ولا معرفة إلا بـــإخلاص، لَا مَعْرِفَةَ إِلَّا بِإِخْلَاص، وَلَا إِخْلَاصَ مَعَ اَلتَّشْبِيهِ، وَلَا نَفْيَ مَعَ إِثْبَاتِ اَلصِّفَاتِ لِلتَّشْبِيهِ، فَكُلُّ مَا فِي اَلْخَلْقِ لَا يُوجَدُ فِـــي خَالِقِهِ، وَكُلُّ مَا يُمْكِنُ فِيهِ يَمْتَنِعُ فِي صَانِعِـــهِ(١)، لَا تَجْرِي عَلَيْهِ اَلْحَرَكَةُ وَالسُّـــكُونُ، كَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ أَوْ يَعُودُ فِيـــهِ مَا هُوَ اِبْتَدَأَهُ؟(٢)، إِذاً لَتَفَاوَتَـــتْ ذَاتُهُ، وَلَتَجَزَّأَ كُنْهُهُ، وَلَامْتَنَعَ مِنَ اَلْأَزَلِ مَعْنَاهُ، وَلَمَا كَانَ لِلْبَارِئِ مَعْنًى غَيْـــرُ اَلْمَبْرُوءِ، وَلَوْ حُدَّ لَهُ وَرَاءٌ إِذاً حُدَّ لَهُ أَمَامٌ(٣)، وَلَوِ اُلْتُمِسَ لَهُ اَلتَّمَامُ إِذاً لَزِمَهُ اَلنُّقْصَانُ(٤)، كَيْفَ يَسْتَحِقُّ اَلْأَزَلَ مَنْ لَا يَمْتَنِعُ مِنَ اَلْحَدَثِ(٥)، وَكَيْفَ يُنْشِـــئُ اَلْأَشْـــيَاءَ مَنْ لَا يَمْتَنِعُ مِنَ اَلإِنْشَـــاءِ(٦)، إِذاً لَقَامَتْ فِيهِ آيَةُ اَلْمَصْنُوعِ، وَلَتَحَـــوَّلَ دَلِيلاً بَعْدَ مَا كَانَ مَدْلُولاً عَلَيْهِ(٧)، لَيْسَ فِي مُحَالِ اَلْقَوْلِ حُجَّةٌ، وَلَا

سبحانه، وهذا فيما يبدو هو المنهج الإلهي في معرفة الخالق.

(١) كيـــف يلتزم بالدين من لا يعرف الرب؟ أم كيف يعرف اللّـــه من لا يخلصه بالعبادة بل يجعل له شـــريكاً، ويقارنه سبحانه بالشركاء؟ أم كيف ينفي الشركاء من يشبه اللّه لخلقه، وهل معنى التشبيه ســـوى وضع الخالق في مصاف المخلوقين سبحانه وتعالى؟ ونفي التشبيه بدوره كيف يكون مع الصفات الزائدة عليه.

وهكذا يقول الإمـــام كلمته الجامعة للمنهـــج التوحيدي وهـــي: أنّ كلّ عجز وضعف ومحدوديـــة موجودة في الخلـــق لا بد أن يتعالى عنها الخالـــق، وأنّ كلّ ما كان وجوده ممكناً في المخلوق فوجوده ممتنع في صانعه.

(٢) الحركة شـــأن الذي يسكن، والسكون شأن الذي يتحرّك، وهما من شؤون المخلوقين، فكيف يجريان في الصانع وقد ابتدأهما ابتداءً.

(٣) إذا قيل هذا الجانب وراءه، لجاز أن يقال: وذاك الجانب أمامه.

(٤) إذا فتشنا عن طريقة لإتمامه، لكان يعني ذلك أنّه ناقص.

(٥) الـــذي يجوز له حـــدوث طارئ، فإنّ ذلك يدلّ على أنّه كان ناقصـــاً، أو أنّ طبيعته قابلة للحدوث، ومثل هذا الشيء لا يستحق الأزليّة.

(٦) الذي يمكن أن يحدث لا يمكنه أن يكون منشئاً.

(٧) إنّ المصنوع هـــو الذي له حد ووراءه وأمام، ونقصان بعد زيـــادة، وزيادة بعد نقصان، وتحرّك وســـكون، وتطوّر وتغيير، وكلّ هذه الدلائل تشـــير إلـــى حقيقة واحدة، هي أنّ

فِي اَلْمَسْأَلَةِ عَنْهُ جَوَابٌ».

بالتقديس نعظّم الرب

«وَلاَ فِي مَعْنَاهُ لَهُ تَعْظِيمٌ، وَلاَ فِي إِبَانَتِه عَنِ اَلْخَلْقِ ضَيْمٌ، إِلاَّ بِامْتِنَاعِ اَلأَزَلِيِّ أَنْ يُثَنَّى، وَمَا لاَ بَدْأَ لَهُ أَنْ يُبْدَأَ[1]، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اَللَّهُ اَلْعَلِيُّ اَلْعَظِيمُ، كَذَبَ اَلْعَادِلُونَ بِاللَّهِ وَضَلُّوا ضَلاٰلاً بَعِيداً، وَخَسِرُوا خُسْرَاناً مُبِيناً، وَصَلَّى اَللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ اَلطَّاهِرِينَ»[2].

المصنوع ليس موجوداً بذاته، وكاملاً بنفسه، ولا عاملاً في حقيقته بحقيقته، بل بحقيقة خارجة عنه، إذاً فلو أثبتنا بعض هذه أنور للخالق لعاد مخلوقاً، ولأصبح بدوره دليلاً على خالق آخر بعد أن كان مدلولاً عليه بخلقه، وهذا محال.

(١) القول المحال هو الذي يكشف العقل بالبداهة استحالته وامتناعه، وليس فيه حجّة، لأنّ الحجّة إنّما تقام في غير الأمور البديهية المعروفة، أمّا فيها فلا حاجة إلى الحجّة، بل الحجّة قد تقيّد منهج الفكر، لأنّ توضيح الواضحات يعقّدها أكثر فأكثر.

وهكذا ليس من الصحيح أن نجيب عن السؤال التالي: بأيّ دليل أصبح اجتماع النقيضين محال؟ لأنّ الحديث عن المحال، حديث عقلي مباشر لا جواب فيه، إذ لا دليل غير العقل يستدلّ به في مثله.

وإذا أثبتنا مثل هذا المعنى للّه سبحانه، فإنّه ليس تعظيماً له كما زعم بعض الفلاسفة، حيث قالوا: إنْ لم نثبت للّه تعالى وحدة الوجود، فإنّه نقص له، كلّا، النقص هو أن نثبت لربّ العزّة ما تثبته لمخلوقية من الحدوث.

وليس من الضيم والظلم أن نفصله عن خلقه، بل هو عين الحكمة والعدل.

التعظيم الحقيقي هو أن نقدّس الربّ الأزلي من أن يكون له ثان أو كفواً، وأن ننزّهه من أن تكون له بداية وتكامل، سبحانه وتعالى عمّا يقولون علواً كبيراً.

(٢) نُقلت هذه الخطبة بأسانيد مختلفة، كما وأنّها تتشابه وعبارات خطب عديدة مأثورة عن أمير المؤمنين عليه السلام تجدها مبثوثة في نهج البلاغة.

3

شرح
حديث المكاسب

الأبعاد الفقهية العامة
لحديث الإمام الصادق عليه السلام
في المكاسب

شرح حديث الإمام الصادق عليه السلام في المكاسب

الإمام الصادق عليه السلام يبيّن أحكام الأنشطة الاقتصادية:

نقلت لنا كتب الحديث رواية مفصّلة[1] عن الإمام الصادق عليه السلام، حول العمل الاقتصادي وصوره المختلفة، وما يجوز وما لا يجوز من المكاسب. وتقسّم الرواية وجوه المكاسب إلى أربع شعب:

١- الولاية (أي التوظيف في الدوائر الحكومية).

٢- التجارة (أو عملية تبادل السلع).

٣- الإجارة (أو بيع الخدمات).

٤- الصناعة.

ولأنّ هذه الرواية تلقي الضوء على أصول العمل الاقتصادي وأحكام المكاسب فإنّنا نذكر نصّها أوّلاً، ثمّ نستلهم منها الأحكام الشرعيّة.

---

(١) جاءت الرواية في كتاب (تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليه وآله) للشيخ أبي محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحرّاني، وأيضاً في كتاب التجارة من موسوعة (وسائل الشيعة) للمحدّث الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي. وكذلك في: موسوعة (بحار الأنوار)، كتاب العقود والإيقاعات للعلّامة المجلسي.

أقسام المكاسب:

أوّل بصيرة يذكّر بها الإمام عليه السلام أنّ في المكاسب ما يحلّ وفيها ما يحرم، ممّا يدل على أن الشريعة الإسلامية لم تهمل الاقتصاد، بل وضعت له حدوداً معينة.

قال الإمام عليه السلام في الجواب عمّن سأله عن معائش العباد:

«جَمِيعُ الْمَعَايِشِ كُلِّهَا مِنْ وُجُوهِ الْمُعَامَلَاتِ فِيمَا بَيْنَهُمْ مِمَّا يَكُونُ لَهُمْ فِيهِ الْمَكَاسِبُ أَرْبَعُ جِهَاتٍ، وَيَكُونُ مِنْهَا حَلَالٌ مِنْ جِهَةٍ، حَرَامٌ مِنْ جِهَةٍ».

«فَأَوَّلُ هَذِهِ الْجِهَاتِ الْأَرْبَعَةِ: الْوِلَايَةُ، ثُمَّ التِّجَارَةُ، ثُمَّ الصِّنَاعَاتُ، تَكُونُ حَلَالاً مِنْ جِهَةٍ حَرَاماً مِنْ جِهَةٍ، ثُمَّ الْإِجَارَاتُ».

«وَالْفَرْضُ مِنَ اللّه عَلَى الْعِبَادِ فِي هَذِهِ الْمُعَامَلَاتِ الدُّخُولُ فِي جِهَاتِ الْحَلَالِ، وَالْعَمَلُ بِذَلِكَ الْحَلَالِ مِنْهَا، وَاجْتِنَابُ جِهَاتِ الْحَرَامِ مِنْهَا».

ولاية العدل وولاية الجور:

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام حكم الشرع في التوظيف عند الدولة، فإذا كانت دولة العدل جاز، ووجب على الموظف ألاَّ يتجاوز حدود القانون الذي يأمر به الوالي العادل، أمّا إذا كانت الدولة جائرة فإنّ التوظيف فيها يُعَدُّ إعانة على الظلم.

يقول الإمام عليه السلام:

«فَإِحْدَى الْجِهَتَيْنِ مِنَ الْوِلَايَةِ وِلَايَةُ وُلَاةِ الْعَدْلِ الَّذِينَ أَمَرَ اللهُ بِوِلَايَتِهِمْ عَلَى النَّاسِ، وَالْجِهَةُ الْأُخْرَى وِلَايَةُ وُلَاةِ الْجَوْرِ».

«فَوَجْهُ الْحَلَالِ مِنَ الْوِلَايَةِ وِلَايَةُ الْوَالِي الْعَادِلِ وَوِلَايَةُ وُلَاتِهِ بِجِهَةِ مَا

أَمَرَ بِهِ الْوَالِـي الْعَادِلُ بِلاَ زِيَادَةٍ وَلاَ نُقْصَانٍ، فَالْوِلاَيَةُ لَهُ وَالْعَمَلُ مَعَهُ وَمَعُونَتُهُ وَتَقْوِيَتُهُ حَلاَلٌ مُحَلَّلٌ».

«وَأَمَّا وَجْهُ الْحَرَام مِنَ الْوِلاَيَةِ فَوِلاَيَةُ الْوَالِي الْجَائِرِ وَوِلاَيَةُ وُلاَتِهِ، فَالْعَمَلُ لَهُمْ وَالْكَسْـبُ مَعَهُمْ بِجِهَةِ الْوِلاَيَةِ لَهُمْ حَرَامٌ مُحَرَّمٌ مُعَذَّبٌ فَاعِلُ ذَلِكَ عَلَى قَلِيلٍ مِنْ فِعْلِهِ أَوْ كَثِيرٍ، لِأَنَّ كُلَّ شَـيْءٍ مِنْ جِهَةِ الْمَعُونَةِ لَهُ مَعْصِيَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الْكَبَائِرِ، وَذَلِكَ أَنَّ فِي وِلاَيَةِ الْوَالِـي الْجَائِرِ دُرُوسَ الْحَقِّ كُلِّهِ، فَلِذَلِكَ حَرُمَ الْعَمَلُ مَعَهُمْ وَمَعُونَتُهُمْ وَالْكَسْـبُ مَعَهُمْ، إِلَّا بِجِهَةِ الضَّرُورَةِ نَظِيرِ الضَّرُورَةِ إِلَى الدَّمِ وَالْمَيْتَةِ».

التجارة بين الحلال والحرام:

ثمّ يبين الإمام عليه السلام حدود الشـريعة في التجـارة، وأنّ التجارة النافعة حلال، أمّا التجارة التي تضرّ بالناس وتفسد عليهم حياتهم فهي محرّمة.

قال الإمام عليه السلام:

«وَأَمَّا تَفْسِـيرُ التِّجَـارَاتِ فِي جَمِيعِ الْبُيُـوعِ وَوُجُوهِ الْـحَلاَلِ مِنْ وَجْهِ التِّجَارَاتِ الَّتِي يَجُوزُ لِلْبَائِعِ أَنْ يَبِيعَ مِمَّا لاَ يَجُوزُ لَهُ، وَكَذَلِكَ الْمُشْتَرِي الَّذِي يَجُوزُ لَهُ شِرَاؤُهُ مِمَّا لاَ يَجُوزُ لَهُ».

«فَـكُلُّ مَأْمُورٍ بِهِ مِمَّا هُوَ غِذَاءٌ لِلْعِبَادِ وَقِوَامُهُـمْ بِهِ فِي أُمُورِهِمْ فِي وُجُوهِ الصَّلاَحِ الَّذِي لاَيُقِيمُهُمْ غَيْرُهُ مِمَّا يَأْكُلُونَ وَيَشْـرَبُونَ وَيَلْبَسُـونَ وَيَنْكِحُونَ وَيَمْلِكُونَ وَيَسْتَعْمِلُونَ مِنْ جَمِيعِ الْمَنَافِعِ الَّتِي لاَ يُقِيمُهُمْ غَيْرُهَا، وَكُلُّ شَيْءٍ يَكُونُ لَهُمْ فِيهِ الصَّلاَحُ مِنْ جِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ، فَهَذَا كُلُّهُ حَلاَلٌ بَيْعُهُ وَشِـرَاؤُهُ وَإِمْسَاكُهُ وَاسْتِعْمَالُهُ وَهِبَتُهُ وَعَارِيَّتُهُ».

«وَأَمَّا وُجُوهُ الْحَرَام مِنَ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ: فَكُلُّ أَمْرٍ يَكُونُ فِيهِ الْفَسَادُ مِمَّا هُوَ مَنْهِيٌّ عَنْهُ مِنْ جِهَةِ أَكْلِهِ أَوْ شُرْبِهِ أَوْ كَسْبِهِ أَوْ نِكَاحِهِ أَوْ مِلْكِهِ أَوْ إِمْسَاكِهِ أَوْ هِبَتِهِ أَوْ عَارِيَّتِهِ، أَوْ شَيْءٍ يَكُونُ فِيهِ وَجْهٌ مِنْ وُجُوهِ الْفَسَادِ نَظِيرِ الْبَيْعِ بِالرِّبَا، أَوِ الْبَيْعِ لِلْمَيْتَةِ، أَوِ الدَّمِ، أَوْ لَحْمِ الْخِنْزِيرِ، أَوْ لُحُومِ السِّبَاعِ مِنْ صُنُوفِ سِبَاعِ الْوَحْشِ وَالطَّيْرِ أَوْ جُلُودِهَا، أَوِ الْخَمْرِ أَوْ شَيْءٍ مِنْ وُجُوهِ النَّجِسِ، فَهَذَا كُلُّهُ حَرَامٌ وَمُحَرَّمٌ، لِأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مَنْهِيٌّ عَنْ أَكْلِهِ وَشُرْبِهِ وَلُبْسِهِ وَمِلْكِهِ وَإِمْسَاكِهِ وَالتَّقَلُّبِ فِيهِ، فَجَمِيعُ تَقَلُّبِهِ فِي ذَلِكَ حَرَامٌ».

«وَكَذَلِكَ كُلُّ بَيْعٍ مَلْهُوٍّ بِهِ، وَكُلُّ مَنْهِيٍّ عَنْهُ مِمَّا يُتَقَرَّبُ بِهِ لِغَيْرِ اللّه، أَوْ يُقَوَّى بِهِ الْكُفْرُ وَالشِّرْكُ مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِ الْمَعَاصِي، أَوْ بَابٌ يُوهَنُ بِهِ الْحَقُّ، فَهُوَ حَرَامٌ مُحَرَّمٌ بَيْعُهُ وَشِرَاؤُهُ وَإِمْسَاكُهُ وَمِلْكُهُ وَهِبَتُهُ وَعَارِيَّتُهُ وَجَمِيعُ التَّقَلُّبِ فِيهِ، إِلَّا فِي حَالٍ تَدْعُو الضَّرُورَةُ فِيهِ إِلَى ذَلِكَ».

الإجارة بين الحلال والحرام:

ثمّ بيّن الإمام عليه السلام أنّ من الإجارة ما ينفع العباد فهي حلال، ومنها ما يضرّ فهي حرام، وأيضاً قد تكون الإجارة فيما يرتبط بالأشياء المحرمة -كتأجير الإنسان نفسه أو سيارته لحمل الخمر مثلاً- فهي حرام، أما الإجارة في مجال تقديم الخدمات المحلّلة للناس فهي حلال.

قال عليه السلام:

«وَأَمَّا تَفْسِيرُ الْإِجَارَاتِ، فَإِجَارَةُ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ أَوْ مَا يَمْلِكُ أَوْ يَلِي أَمْرَهُ مِنْ قَرَابَتِهِ أَوْ دَابَّتِهِ أَوْ ثَوْبِهِ بِوَجْهِ الْحَلَالِ مِنْ جِهَاتِ الْإِجَارَاتِ، أَوْ يُؤْجِرُ نَفْسَهُ، أَوْ دَارَهُ، أَوْ أَرْضَهُ، أَوْ شَيْئاً يَمْلِكُهُ، فِيمَا يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ وُجُوهِ الْمَنَافِعِ، أَوِ الْعَمَلِ بِنَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَمْلُوكِهِ أَوْ أَجِيرِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ وَكِيلاً لِلْوَالِي، أَوْ وَالِياً

لِلْوَالِي، فَلَا بَأْسَ أَنْ يَكُونَ أَجِيراً يُؤْجِرُ نَفْسَهُ أَوْ وَلَدَهُ، أَوْ قَرَابَتَهُ أَوْ مِلْكَهُ أَوْ وَكِيلَهُ فِي إِجَارَتِهِ لِأَنَّهُمْ وُكَلَاءُ الْأَجِيرِ مِنْ عِنْدِهِ لَيْسَ لَهُمْ بِوَلَاءِ الْوَالِي، نَظِيرُ الْحَمَّالِ الَّذِي يَحْمِلُ شَيْئاً بِشَيْءٍ مَعْلُومٍ إِلَى مَوْضِعٍ مَعْلُومٍ، فَيَحْمِلُ ذَلِكَ الشَّيْءَ الَّذِي يَجُوزُ لَهُ حَمْلُهُ بِنَفْسِهِ أَوْ بِمَمْلُوكِهِ أَوْ دَابَّتِهِ، أَوْ يُؤَاجِرُ نَفْسَهُ فِي عَمَلٍ يَعْمَلُ ذَلِكَ الْعَمَلَ بِنَفْسِهِ أَوْ بِمَمْلُوكِهِ أَوْ قَرَابَتِهِ أَوْ بِأَجِيرٍ مِنْ قِبَلِهِ، فَهَذِهِ وُجُوهٌ مِنْ وُجُوهِ الْإِجَارَاتِ حَلَالٌ لِمَنْ كَانَ مِنَ النَّاسِ مَلِكاً أَوْ سُوقَةً أَوْ كَافِراً أَوْ مُؤْمِناً، فَحَلَالٌ إِجَارَتُهُ وَحَلَالٌ كَسْبُهُ مِنْ هَذِهِ الْوُجُوهِ».

«فَأَمَّا وُجُوهُ الْحَرَامِ مِنْ وُجُوهِ الْإِجَارَةِ نَظِيرِ أَنْ يُؤَاجِرَ نَفْسَهُ عَلَى مَا يَحْرُمُ عَلَيْهِ أَكْلُهُ أَوْ شُرْبُهُ أَوْ لُبْسُهُ، أَوْ يُؤَاجِرَ نَفْسَهُ فِي صَنْعَةِ ذَلِكَ الشَّيْءِ أَوْ حِفْظِهِ أَوْ لُبْسِهِ، أَوْ يُؤَاجِرَ نَفْسَهُ فِي هَدْمِ الْمَسَاجِدِ ضِرَاراً، أَوْ قَتْلِ النَّفْسِ بِغَيْرِ حِلٍّ، أَوْ حَمْلِ التَّصَاوِيرِ وَالْأَصْنَامِ وَالْمَزَامِيرِ وَالْبَرَابِطِ وَالْخَمْرِ وَالْخَنَازِيرِ وَالْمَيْتَةِ وَالدَّمِ، أَوْ شَيْءٍ مِنْ وُجُوهِ الْفَسَادِ الَّذِي كَانَ مُحَرَّماً عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ جِهَةِ الْإِجَارَةِ فِيهِ، وَكُلُّ أَمْرٍ مَنْهِيٍّ عَنْهُ مِنْ جِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ مُحَرَّمٌ عَلَى الْإِنْسَانِ إِجَارَةُ نَفْسِهِ فِيهِ أَوْ لَهُ أَوْ شَيْءٍ مِنْهُ أَوْ لَهُ، إِلَّا لِمَنْفَعَةِ مَنِ اسْتَأْجَرَهُ، كَالَّذِي يَسْتَأْجِرُ الْأَجِيرَ يَحْمِلُ لَهُ الْمَيْتَةَ يُنَحِّيهَا عَنْ أَذَاهُ أَوْ أَذَى غَيْرِهِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ».

«وَالْفَرْقُ بَيْنَ مَعْنَى الْوِلَايَةِ وَالْإِجَارَةِ، وَإِنْ كَانَ كِلَاهُمَا يَعْمَلَانِ بِأَجْرٍ، أَنَّ مَعْنَى الْوِلَايَةِ أَنْ يَلِيَ الْإِنْسَانُ لِوَالِي الْوُلَاةِ أَوْ لِوُلَاةِ الْوُلَاةِ، فَيَلِي أَمْرَ غَيْرِهِ فِي التَّوْلِيَةِ عَلَيْهِ وَتَسْلِيطِهِ، وَجَوَازِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَقِيَامِهِ مَقَامَ الْوَلِيِّ إِلَى الرَّئِيسِ، أَوْ مَقَامَ وُكَلَائِهِ فِي أَمْرِهِ، وَتَوْكِيدِهِ فِي مَعُونَتِهِ وَتَسْدِيدِ وِلَايَتِهِ، وَإِنْ كَانَ أَدْنَاهُمْ وِلَايَةً فَهُوَ وَالٍ عَلَى مَنْ هُوَ وَالٍ عَلَيْهِ، يَجْرِي مَجْرَى الْوُلَاةِ الْكِبَارِ الَّذِينَ يَلُونَ وِلَايَةَ النَّاسِ فِي قَتْلِهِمْ مَنْ قَتَلُوا وَإِظْهَارِ الْجَوْرِ وَالْفَسَادِ».

«وَأَمَّا مَعْنَى الْإِجَارَةِ فَعَلَى مَا فَسَّرْنَا مِنْ إِجَارَةِ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ أَوْ مَا يَمْلِكُهُ

مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤَاجَرَ لِشَيْءٍ مِنْ غَيْرِهِ، فَهُوَ يَمْلِكُ يَمِينَهُ لِأَنَّهُ لَا يَلِي أَمْرَ نَفْسِهِ وَأَمْرَ مَا يَمْلِكُ قَبْلَ أَنْ يُؤَاجِرَهُ مِمَّنْ هُوَ آجِرُهُ، وَالْوَالِي لَا يَمْلِكُ مِنْ أُمُورِ النَّاسِ شَيْئاً إِلَّا بَعْدَ مَا يَلِي أُمُورَهُمْ وَيَمْلِكُ تَوْلِيَتَهُمْ، وَكُلُّ مَنْ آجَرَ نَفْسَهُ أَوْ آجَرَ مَا يَمْلِكُ نَفْسُهُ أَوْ يَلِي أَمْرَهُ مِنْ كَافِرٍ أَوْ مُؤْمِنٍ أَوْ مَلِكٍ أَوْ سُوقَةٍ عَلَى مَا فَسَّرْنَا مِمَّا يَجُوزُ الْإِجَارَةُ فِيهِ فَحَلَالٌ مُحَلَّلٌ فِعْلُهُ وَكَسْبُهُ».

الصناعة بين الحلال والحرام:

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام أنّ العمل في مجال الصناعة محبّذ في الشريعة الإسلامية وأنّ الحلال من الصناعة هو ما كان نافعاً للناس وفيه صلاحهم، في حين أنّ الحرام هو الصناعة التي لا يأتي منها إلّا الفساد، أمّا ما كان له منافع محلّلة ومحرّمة فإنّ الشرع يغلّب جانب الحلال ويسمح به، وتقع مسؤولية الاستفادة المحرّمة على المستفيد نفسه.

يقول الإمام عليه السلام:

«وَأَمَّا تَفْسِيرُ الصِّنَاعَاتِ فَكُلُّ مَا يَتَعَلَّمُ الْعِبَادُ أَوْ يُعَلِّمُونَ غَيْرَهُمْ مِنْ صُنُوفِ الصِّنَاعَاتِ مِثْلِ: الْكِتَابَةِ، وَالْحِسَابِ، وَالتِّجَارَةِ، وَالصِّبَاغَةِ، وَالسِّرَاجَةِ، وَالْبِنَاءِ، وَالْحِيَاكَةِ، وَالْقِصَارَةِ، وَالْخِيَاطَةِ، وَصَنْعَةِ صُنُوفِ التَّصَاوِيرِ مَا لَمْ يَكُنْ مِثْلَ الرُّوحَانِيِّ، وَأَنْوَاعِ صُنُوفِ الْآلَاتِ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْعِبَادُ،

«[الَّتِي] مِنْهَا مَنَافِعُهُمْ، وَبِهَا قِوَامُهُمْ، وَفِيهَا؛ بُلْغَةُ جَمِيعِ حَوَائِجِهِمْ فَحَلَالٌ فِعْلُهُ وَتَعْلِيمُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ وَفِيهِ لِنَفْسِهِ أَوْ لِغَيْرِهِ».

«وَإِنْ كَانَتْ تِلْكَ الصِّنَاعَةُ وَتِلْكَ الْآلَةُ قَدْ يُسْتَعَانُ بِهَا عَلَى وُجُوهِ الْفَسَادِ وَوُجُوهِ الْمَعَاصِي، وَيَكُونُ مَعُونَةً عَلَى الحَقِّ وَالْبَاطِلِ فَلَا بَأْسَ بِصِنَاعَتِهِ وَتَعْلِيمِهِ، نَظِيرِ الْكِتَابَةِ الَّتِي هِيَ عَلَى وَجْهٍ مِنْ وُجُوهِ الْفَسَادِ مِنْ تَقْوِيَةِ مَعُونَةِ

ولاَيَةِ وُلاَةِ الْجَوْرِ. وَكَذَلِكَ السِّكِّينُ وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالْقَوْسُ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ الآلَةِ الَّتِي قَدْ تُصْرَفُ إِلَى جِهَاتِ الصَّلاَحِ وَجِهَاتِ الْفَسَادِ وَتَكُونُ آلَةً وَمَعُونَةً عَلَيْهَا، فَلاَ بَأْسَ بِتَعْلِيمِهِ وَتَعَلُّمِهِ وَأَخْذِ الأَجْرِ عَلَيْهِ وَفِيهِ وَالْعَمَلِ بِهِ وَفِيهِ لِمَنْ كَانَ لَهُ فِيهِ جِهَاتُ الصَّلاَحِ مِنْ جَمِيعِ الْخَلاَئِقِ، وَمُحَرَّمٌ عَلَيْهِمْ فِيهِ تَصْرِيفُهُ إِلَى جِهَاتِ الْفَسَادِ وَالْمَضَارِّ، فَلَيْسَ عَلَى الْعَالِمِ وَالْمُتَعَلِّمِ إِثْمٌ وَلاَ وِزْرٌ لِمَا فِيهِ مِنَ الرُّجْحَانِ فِي مَنَافِعِ جِهَاتِ صَلاَحِهِمْ وَقِوَامِهِمْ وَبَقَائِهِمْ، وَإِنَّمَا الإِثْمُ وَالْوِزْرُ عَلَى الْمُتَصَرِّفِ بِهَا فِي وُجُوهِ الْفَسَادِ وَالْحَرَامِ».

«وَذَلِكَ إِنَّمَا حَرَّمَ اللهُ الصِّنَاعَةَ الَّتِي حَرَامٌ كُلُّهَا الَّتِي يَجِيءُ مِنْهَا الْفَسَادُ مَحْضاً، نَظِيرُ الْبَرَابِطِ وَالْمَزَامِيرِ وَالشِّطْرَنْجِ وَكُلِّ مَلْهُوٍّ بِهِ، وَالصُّلْبَانِ وَالأَصْنَامِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنْ صِنَاعَاتِ الأَشْرِبَةِ الْحَرَامِ، وَمَا يَكُونُ مِنْهُ وَفِيهِ الْفَسَادُ مَحْضاً وَلاَ يَكُونُ فِيهِ وَلاَ مِنْهُ شَيْءٌ مِنْ وُجُوهِ الصَّلاَحِ، فَحَرَامٌ تَعْلِيمُهُ وَتَعَلُّمُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ وَأَخْذُ الأَجْرِ عَلَيْهِ، وَجَمِيعُ التَّقَلُّبِ فِيهِ مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِ الْحَرَكَاتِ كُلِّهَا، إِلاَّ أَنْ يَكُونَ صِنَاعَةً قَدْ تُصْرَفُ إِلَى جِهَاتِ الصَّنَائِعِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يُتَصَرَّفُ بِهَا وَيُتَنَاوَلُ بِهَا وَجْهٌ مِنْ وُجُوهِ الْمَعَاصِي فَلَعَلَّهُ لِمَا فِيهِ مِنَ الصَّلاَحِ حَلَّ تَعَلُّمُهُ وَتَعْلِيمُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ، وَيَحْرُمُ عَلَى مَنْ صَرَفَهُ إِلَى غَيْرِ وَجْهِ الْحَقِّ وَالصَّلاَحِ. فَهَذَا بَيَانُ تَفْسِيرِ وَجْهِ اكْتِسَابِ مَعَايِشِ الْعِبَادِ وَتَعْلِيمِهِمْ فِي جَمِيعِ وُجُوهِ اكْتِسَابِهِمْ..»[1].

تأمّلات في الحديث:

١- تشير الرواية إلى الطبقات الاجتماعية العامة، وهم:

ألف: الموظّفون الحكوميون، وتشير الرواية إلى هذه الطبقة بلفظ

(١) نقلنا الرواية من: وسائل الشيعة (كتاب التجارة)، ج ١٧، ص ٨٥، وتحف العقول، ص ٣٣٣.

(الولاية والولاة).

باء: التجّار، ما يشمل التجارة العامّة كالاستيراد والتصدير والبيع بالجملة، أو التجارة الجزئية كأصحاب المحلات الصغيرة والبيع بالمفرد.

جيم: الصناعيون.

دال: عمّال مستأجرون.

ولا تزال هذه الطبقات هي الفئات الرئيسة في الأنظمة الاقتصادية القائمة في البلاد.

٢- وتبدأ الرواية بالحديث عن الولاة (الموظّفين) ممّا يوحي بأهمية السياسة والإدارة الحكومية، وأنّ صلاح الأمّة وفسادها يتأثّران مباشرة بصلاح أو فساد السياسة والنظام الإداري.

الموظّفون:

٣- تحدّثت الرواية عن جواز تقلّد المناصب والوظائف الحكومية في الحكومات الشرعية، واشترطت أن يكون الموظّف (أو الوالي عنهم) ملتزماً بدقّة بالتعاليم الحكومية الصادرة عن الحاكم العادل من دون زيادة أو نقيصة. ذلك لأنّ مجرّد الانتماء إلى حكومة شرعية عادلة، لا يعني تصحيح كلّ عمل يصدر عن الفرد، بل إنّما يصح التوظيف عند العادل إذا التزم الإنسان بالعدل في تصرفاته ولم يعمل بهواه.

٤- وأمّا التوظيف لدى الحكومات الجائرة، فقد بيّنت الرواية حرمة التعامل مع هذه الحكومات في مجال الولاية ذاتها، أي في مجال دعم النظام الجائر وتعزيز أركانه، حيث عبّرت الرواية عن ذلك بالقول: «لِأَنَّ

كُلَّ شَيْءٍ مِنْ جِهَةِ اَلْمَعُونَةِ مَعْصِيَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ اَلْكَبَائِرِ».

٥- وتستثني الرواية من حرمة ولاية الجائر حالاتِ الضرورة، مثل الضرورة التي تحلّل الدم والميتة، وهناك بالطبع استثناءات أخرى تُستنبط من القواعد العامّة في الشريعة، سنشير إليها في مواقعها إن شاء اللّه تعالى.

التجارات:

٦- نستفيد من الحديث أنّ الأصل في التجارات هو الحلّية ما دامت مفيدة للناس، وفيها منفعتهم ومصلحتهم المعيشية، وإنّما يُستثنى منها تلك المنافع التي حرّمها الشرع.

٧- وإذا تشابهت معاملة من المعاملات المستحدثة ولم نعرف وجه الحلّية فيها من وجه الحرمة، فالأصل فيها الحلّية.

٨- ونستفيد من الرواية أنّ سبب حرمة بعض المعاملات التجارية هو ورود النهي من قبل الشريعة، فإذا لم تكن المعاملة منهياً عنها لم تحرم، وإنّما يحرم ما يرتبط بمجال النهي فقط وليس بشكل مطلق، فمثلاً إذا كان الشيء منهياً عن أكله وشربه، ولكنّه ليس منهياً عن استخدامه للتداوي والعلاج (كالسم)، فالمحرّم هنا هو التعاقد عليه للأكل والشرب، أمّا التعاقد عليه من أجل الغرض المحلّل (وهو التداوي) فلا يبدو أنّه محرم.

٩- وهكذا الأمر بالنسبة للنجس والمتنجّس، إذ الحرام هو التعاقد عليهما للاستخدام المحرّم كالأكل والشرب والصلاة وسائر الاستعمالات المنهي عنها، أمّا التعاقد عليهما لغرض الاستخدام الحلال لهما فلا حرمة فيه، كاستخدام بعض المواد النجسة في التسميد، أو في الأغراض الصناعية، أو استخدام الدم للتزريق في المريض، أو أيّ غرض محلّل

مشروع آخر يقصده العقلاء.

فالمحرّمات يمكن أن يقع التعاقد عليها إذا كانت لها منافع محلّلة معتدٌّ بها ومعترف بها عند العقلاء.

١٠- وتصرّح الرواية بتحريم المتاجرة بكلّ آلات اللهو (كالآلات الموسيقية)، وكلّ ما يكون أداة وطريقاً للمعصية كالأصنام، والصلبان، وآلات القمار، وما يؤدي إلى المساعدة على الحرام كبيع الأسلحة والمعدات الحربية لأعداء الدين.

١١- كما يحرم التعاقد على كلّ شيء يساعد العدو على التغلّب على المسلمين، مثل بيع الوقود لآلياتهم الحربية، أو بيع التقنية التي تساعدهم على الحرب.

١٢- وكذلك يحرم التعاقد على كلّ ما يسبب ضرراً بالغاً بالمسلمين، مثل المخدرات.

الإجارات (أو بيع الخدمات):

١٣- تشير الرواية إلى أنّ الإجارة أنواع ثلاثة:

الأول: أن يؤجّر الشخص ما يملك من الأرض أو العقار (دار سكنى، أو محل تجاري، أو مبنى إداري، أو غيرها) أو وسائط النقل (كالسيارة، والقطار، والسفينة، والطائرة) أو بعض الآلات والأجهزة المفيدة الأخرى.

الثاني: أن يؤجّر الشخص نفسه (كالعامل الذي يبيع خدماته).

الثالث: أن يؤجّر الشخص من يملك أمره مثل: أولاده أو ذوي قرابته، أو من يتحمّل مسؤولية الإشراف عليه بالوكالة.

١٤- معيار حرمة الإجارة هو حرمة العمل الذي يقوم به الفرد، فما كان محرّماً على الفرد من غير جهة الإجارة (بل من جهة ا لمباشرة) يحرم أيضاً من جهة الإجـارة، فكما لا يجوز بيع الخمر والميتـة واللحوم المحرمة، والأفلام الخليعـة وآلات القمـار والمخدرات، وقتـل النفس المحرّمة، كذلك لا يجوز الإجارة لتقديم أيّة خدمات في إطار هذه الأمور، فكلّ فعل حرام لا يجوز الإجارة له.

١٥- أمّا إذا كان في ذلك الفعل أو الشـيء الحرام جهة صلاح وحلال جازت الإجارة له، فمـثلاً إذا واجهنا كمية كبيرة من الذبائح المحرّمة التي ينبغـي التخلص منها بالحرق أو الدفن، جاز أن يؤجّر الإنسـان نفسـه أو معداته للقيام بهذا العمل الحلال وإن كانت الميتة نفسها محرّمة.

١٦- هناك فرق بين الولاية مـن قبل الظالم (التوظيف) وبين الإجارة، إذ إنّ الولايـة تعني فـرض الهيمنة على الغير من قبـل الوالي (الحاكم أو الدولة)، بينما الإجـارة تعني عقداً يقدّم الفرد بموجبه خدمة معينة للطرف الآخر بإزاء أجر معلوم.

من هنا تجوز الإجارة لكلّ الناس وفي كلّ الأعمال والخدمات المحلّلة، ولا تجـوز الولاية (بالمعنى التي ذكرناها) مـن قبل كلّ أحد، إنّما من قبل الحاكم العادل فقط.

الصناعات:

١٧- أهم ما يُسـتفاد من هذا الحديث الشريف فيما يتعلّق بالصناعات هـو: أنّ الصناعة أمر مرغوب فيه في الشـريعة، لأنّها تسـد ثغرات كثيرة في حياة الناس، وتسـاعد على تطوير حياتهـم نحو الأفضل، وأنّها محلّلة

بصفة عامة، وذلك كأغلب الصناعات الإنتاجية المتداولة في حياتنا اليوم، سواء الصناعات الثقيلة؛ كصناعة الطائرات، والسيارات، والسفن، والبترو كيماويات، والمعادن وما أشبه، أو الصناعات الخفيفة كصناعة المواد الإنشائية، والنسيج، والخياطة، والصياغة، والمواد الغذائية، وغير ذلك ممّا يحتاج إليه الناس في إدارة شؤونهم الحياتية والمعيشية وتوفير الرفاه والسعادة والراحة لهم.

١٨- أمّا الصناعات المحرّمة فهي التي تستخدم منتوجاتها في مجال الفساد فقط، وليس لها أيّ استخدام سليم وصالح كالآلات الموسيقية، وأدوات القمار، وسائر أنواع اللهو المحرم، والأصنام، والمشروبات المحرمة، والمخدرات، وما إلى ذلك.

١٩- وأمّا الصناعات ذات الوجهين، التي يشترك الانتفاع بها في مجالي الصلاح الفساد، فإنّ الرواية تؤكّد على تغليب جانب الصلاح، فإذا كانت الأسلحة النارية تستخدم للدفاع عن النفس -وهو أمر مشروع-، ولقتل الأبرياء -وهو أمر محرم وفاسد-، فإنّ هذا لا يعني تحريم صناعتها، بل الحكم يتبع جهة الصلاح والمنفعة المحلّلة المقصودة، وتبقى مسؤولية الاستخدام الفاسد على المستخدم ذاته.

4

شرح كلام لأمير المؤمنين عليه السلام عن دعائم الإيمان

دعائم الإيمان

كيف يعتمر القلب بالايمان؟ بكلمة: حين يُسقط حجاب الزمان فيعيش عِبرَ الماضي، وعواقب المستقبل، يعيشــهما بذات الوضوح الذي يعيش الحاضر.

وحين يســقط حجاب الظاهر وينفذ ببصيرته إلى غيب الباطن فاذا به لا ينظر إلى شيء حتى يتبصّر أوّله وآخره وحكمته وعبرته.

وحين يسقط حجاب الذات، فلا يمزج بين هوى نفسه وبصيرة قلبه، ولا بين أمنياته وعلمه، ولا بين هدى عقله وبين وساوس الشيطان.

وهنا يجدر بنا أن نتلو معاً حديثاً مأثوراً عن الإمام علي عليه السلام وهو يبيّن دعائم الإيمان بلغة موجزة ونحاول توضيحها باختصار:

نقل الشريف الرضي رضي الله عنه في نهج البلاغة أنّه سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن الإيمان فقال: اَلْإِيمَانُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِـمَ: عَلَى اَلصَّبْرِ وَاَلْيَقِينِ وَاَلْعَدْلِ وَاَلْجِهَادِ، وَاَلصَّبْرُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُــعَبٍ: عَلَى اَلشَّــوْقِ وَاَلشَّــفَقِ وَاَلزُّهْدِ وَاَلتَّرَقُّبِ، فَمَنِ اِشْــتَاقَ إِلَى اَلْجَنَّةِ سَلاَ عَنِ اَلشَّهَوَاتِ، وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ اَلنَّارِ اِجْتَنَبَ اَلْمُحَرَّمَاتِ، وَمَنْ زَهِدَ فِي اَلدُّنْيَا اِسْــتَهَانَ بِالْمُصِيبَاتِ وَمَنِ اِرْتَقَبَ اَلْمَوْتَ سَارَعَ إِلَى اَلْخَيْرَاتِ.

وَالْيَقِينُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى تَبْصِرَةِ الْفِطْنَةِ وَتَأَوُّلِ الْحِكْمَةِ وَمَوْعِظَةِ الْعِبْرَةِ وَسُنَّةِ الْأَوَّلِينَ، فَمَنْ تَبَصَّرَ فِي الْفِطْنَةِ تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ، وَمَنْ تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ عَرَفَ الْعِبْرَةَ، وَمَنْ عَرَفَ الْعِبْرَةَ فَكَأَنَّمَا كَانَ فِي الْأَوَّلِينَ.

وَالْعَدْلُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى غَائِصِ الْفَهْمِ وَغَوْرِ الْعِلْمِ وَزُهْرَةِ الْحُكْمِ وَرَسَاخَةِ الْحِلْمِ، فَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ، وَمَنْ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ صَدَرَ عَنْ شَرَائِعِ الْحُكْمِ، وَمَنْ حَلُمَ لَمْ يُفَرِّطْ فِي أَمْرِهِ، وَعَاشَ فِي النَّاسِ حَمِيداً.

وَالْجِهَادُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالصِّدْقِ فِي الْمَوَاطِنِ وَشَنَآنِ الْفَاسِقِينَ، فَمَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ شَدَّ ظُهُورَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَنْ نَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ أَرْغَمَ أُنُوفَ الْكَافِرِينَ، وَمَنْ صَدَقَ فِي الْمَوَاطِنِ قَضَى مَا عَلَيْهِ، وَمَنْ شَنِئَ الْفَاسِقِينَ وَغَضِبَ لِلَّهِ غَضِبَ اللَّهُ لَهُ وَأَرْضَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ[1].

تفسير دعائم الإيمان:

يبدو أنّ هذا الحديث يبيّن حقيقة الإيمان وما يهدينا إلى تلك الحقيقة، وبالذات من حيث أنّ الإيمان ليس مجرّد نور (كنور العقل والعلم والمشيئة) بل هو أيضاً روح وعزم وبالتالي إعمار القلب بذلك النور، وتفاعل النفس معه. وبكلمة: الإيمان فعل الفؤاد وليس فقط نوره، وعلى الإنسان السعي نحوه لكي يعطيه اللّه سبحانه منه بقدر مقدور.

فهو قائم على تلك الأركان الأربعة: الصبر واليقين والعدل والجهاد.

---

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٣١.

ألف/ الصبر أوّل دعائم الايمان:

ولكن كيف أصبح الصبر أبرز دعائم الايمان؟

الإيمان حقاً هو التسليم لحقيقة الغيب، وقد قال ربّنا سبحانه: ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾[1].

ولعلّ العلم بالشهود ليس إيماناً، إذا لم يتطلّب جهداً نفسياً وسعياً قلبياً.

والزمن القادم (الآخرة) هو الذي يحفّز الإنسان إلى الإيمان، وبالذات وعي المسؤولية والاعتقاد الراسخ بالجزاء، وهكذا أصبح الشوق إلى الجنة والخشية من النار، والرغبة عن الدنيا وانتظار الموت، من أعظم دعائم الإيمان، لأنّ كلّ ذلك يجعلنا نتجاوز الشهود إلى الغيب والحاضر إلى المستقبل والمحدود إلى المطلق.

باء/ اليقين زهرة الإيمان:

بعد أن ترتفع عن العين حجب المادة، وشهوات الدنيا وضغوط الحياة العاجلة، تنفتح على البصيرة نافذةٌ وسيعة على الغيب، وهنا الغيب ليس مجرّد وعي المستقبل، بل تبصرة حقائق الأشياء التي غلّفتها المادة الثقيلة وأدرانها.

واليقين هو تلك النافذة، فما هي أركان اليقين وعوامله؟

أوّلاً: تبصير العقل، وإثارته لكي تتعرّف على مواطن الأمور، وخلفيات الظواهر، وللقلب موهبة الوصول إلى الباطل تسمى بـ (الفطنة)، ولكن الفطنة في سبات حتى يبصّرها الإنسان، فهنالك يصبح الفرد فطناً (يصبح كيّساً وذا بصيرة).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣.

فإذا أصبح فطناً لا يكتفي بمعرفة المظهر، بل يتفطّن إلى المخبر ليس بالتعمّق القائم على التخّيل والظنّ، بل بالفطنة القائمة على اكتشاف الحق بحقيقته، والصواب بنوره، وكلّ شيء بآياته وعلاماته، مستهدياً بنور العلم، وبالمعارف السابقة والتجارب المتراكمة.

ثانياً: تأوّل الحكمة ومن خلال معرفة الشيء معرفة واسعة محيطة، يعرف الإنسان حكمته، وسبب وجوده وما أدّى إليه، وهنا تلتقي فطرة الإنسان التي تحتوي على المثل العليا والحقائق الكبرى؛ تلتقي بتطبيقاتها على الواقع، وكمثل على ذلك إذا كانت الحكمة هي القيم التي تميّز للإنسان الحق والباطل، وقد فُطِرَت النفس البشرية عليها، وعرف الإنسان عبر تطبيق تلك القيم -على الواقع الخارجي- عرف حقيقة الحوادث والظواهر التي تقع، وأنّها هل هي حق أم باطل، صواب أم خطأ، وهكذا يطبّق الإنسان المؤمن الحكمة على الواقع كما وأنّه يرجع الواقع إلى حقائق الحكمة[1].

ثالثاً: فاذا عرفنا ماذا وقع (عبر موهبة الفطنة) وعرفنا لماذا وقع (عبر موهبة الحكمة) فعلينا ان نتخذ موقفاً منه أي نحدّد وضعنا بالنسبة إلى تلك الحقيقة، ومن هنا قال الإمام عليه السلام ومن تبيّنت له الحكمة عرف العبرة، فالعبرة هي الانتفاع العملي بالحكمة.

رابعاً: سنّة الأوّلين، فمن خلال الاعتبار يصل الإنسان إلى تفاعل بين النفس والمعرفة، ويندمج العلم بالعمل، ويتناغم الموضوع والذات، ويقترب الإنسان إلى معرفة السنن الإلهية التي جرت في الأوّلين، وأنّ مَن نجا كيف نجا ومَن هلك كيف هلك.

---

(١) للتأوّل معنيان: الأوّل تطبيق النص على الواقع، الثاني إرجاع الواقع الجزئي إلى القاعدة العامة، ويبدو أنّ كلا المعنيين صحيح إلّا أنّ الثاني أقرب.

كيف تكون العبرة طريقاً إلى معرفة السنن (القوانين الاجتماعية)؟ لعلّ ذلك يتمّ بعد إلغاء الحاجز الزمني بين الماضي والحاضر، وإلغاء الحاجز المصطنع بين الموضوع والذات، فيصل القلب إلى الحقيقة المطلقة من دون حجاب.

جيم/ العدل جوهر القيم:

ماذا تعني كلمة العدل؟ إنّها تعني إعطاء كلّ ذي حق حقّه، والقضاء بين الناس بما أراه اللّه من الحق وعدم اتباع الهوى[1].

ولكي يعدل الإنسان بين الناس فإنّه بحاجة إلى أربعة أمور هي: فهم عميق، وعلم غزير، وصواب في الرأي، وضبط للعواطف.

والإيمان باللّه سبحانه يورث هذه الخصال، كيف ذلك؟ ذلك أنّ:

أوّلاً: غائص الفهم، فالمؤمن الذي يكشف -بإيمانه- حجب الكِبر والجحود، ويطّلع على غيب الشهود، إنّه يؤتى غائص الفهم، أرأيت كيف يغوص طالب اللؤلؤ في عمق البحار؟ كذلك المؤمن لا يقف عند حاجز الشهود الظاهر، بل يسعى أبداً لفهم الحقيقة بالغوص في الحقائق، والاطلاع على الماورائيات، من هنا جاء في حديث الإمام علي عليه السلام في تعريف العدل أنّه يقوم على غائص الفهم، وجاء في بعض نسخ الحديث: «**على غامض الفهم**» والفهم الغامض هو الفهم لما غمض وخفي.

ثانياً: غور العلم، فعندما يُؤتى المرء غائص الفهم، يصل إلى غور العلم،

(١) قال العلامة المجلسي في موسوعة البحار، ج٦٥، ص ٣٦٩: كأنّ المراد بالعدل هنا ترك الظلم، والحكم بالحق بين الناس، وإنصاف (أن ينصف الإنسان) الناس من نفسه، لا (وليس المراد من كلمة العدل هنا) ما هو مصطلح الحكماء من التوسّط في الأمور.

فلا يكون علمه سطحياً قشرياً، بل يغور في الأعماق ليبلغ لبّ الحقيقة.

والعلـــم العميق (غور العلـــم) هو العلم الغامر (حيـــث جاء في بعض النسخ).

ثالثاً: زهرة الحكم، حيث تكتمل عند المؤمن شروط الحكم الصائب، الـــذي طلبه بالفهم الغائـــص والعلم الغامر، والذي يســـمّيه الإمام عليه السلام بـ(زهرة الحكم).

وهي الحكم الزاهر الواضح، الذي لا ريب فيه، فهو لا يتّبع المتشابهات، ولا يبحث عن الأحكام الملتوية، بل يســـير علـــى الطريق الواضح والذي يسمّيه الإمام بـ (الشريعة).

ويقول عليه السلام في نصّ آخر: «**وَمَنْ عَلِمَ عَرَفَ شَرَائِعَ اَلْحُكْمِ**»[1].

رابعاً: رساخة الحلم واذا عرف الحكم الصائب، لم يبق امامه الا العاطفة التي قد تلوبه عن الحكم السليم وهو يتحدّاها الحلم الراسخ، الذي يضبط النفس، فلا تميل مع الهوى عن الحق.

ومن هنا قال الإمام عليه السلام: (وَرَسَاخَةِ اَلْحِلْمِ).

ثمّ قال الإمام عليه السلام: (فَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ غَوْرَ اَلْعِلْمِ).

أليس الفهم (الفقه- التأمل- التفكر) هو وســـيلة الإنسان لمعرفة العلم العميق؟

وقال عليه السلام: «**وَمَنْ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ صَدَرَ عَنْ شَرَائِعِ الْحُكْمِ**».

فمن دون العلم بالحقائق الخفية، لَا يتســـنّى للمؤمن أن يعود من رحلته

(١) الكافي، ج٢، ص ٥١.

العلمية والعقلية بالحُكم الواضح، الذي يسمّيه الإمام بشرايع الحكم.

ونستلهم من كلمة الإمام أنّ المؤمن يصل إلى تلك المناهج الواضحة -التي تشبه الشريعة التي لا تخصّ قضية محدّدة وإنّما جملة القضايا وفي مختلف الحالات- فهو كمن قد استوى على الطريق المستقيم في أمر القضاء.

وقال عن فائدة الحلم: «**وَمَنْ حَلُمَ لَمْ يُفَرِّطْ فِي أَمْرِهِ وَعَاشَ فِي النَّاسِ حَمِيداً**».

دال/ الجهاد حصن الإيمان:

واذا اكتملت حقائق الإيمان في سلوك الفرد في العبادات (الصبر)، وفي شؤون الحياة (اليقين)، وفي المجتمع (العدل)، هناك جاء دور الدفاع عن إيمانه بالجهاد، الذي قال عنه الإمام عليه السلام:

«**وَالْجِهَادُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالصِّدْقِ فِي الْمَوَاطِنِ، وَشَنَآنِ الْفَاسِقِينَ**».

أوّلاً: الأمر بالمعروف، وهو ذلك المصباح الذي لا يخبو نوره، لأنّه يجعل الخير راية مرفوعة، والصلاح شعاراً للأُمّة، وعلماً فوق كلّ ذروة، حتى يصبغ المؤمن مجتمعه بالمعروف.

ثانياً: النهي عن المنكر، الذي هو السيف الذي لا ينبو، والحصن الذي لا يحترق، والمتراس الذي تتكسّر عنده أمواج الشهوات الفاسدة.

ثالثاً: الصدق في الموطن، فلا يكتفي المؤمن بهاتين الفريضتين، وإنّما يقتحم غمار الجهاد المسلّح -حين تحين ساعته- فلا تخور عزيمته،

ولا يتراجع عن الجهاد -دَهْره-، فهو شـــجاع مقدام، تشـــهد له المعارك (المواطن) بالصدق والثبات.

رابعاً: شنآن الفاسقين، فمواقفه اليومية -هي الأخرى- صراع دائم ضد الفساد، لأنّه يجتنب الفاســـقين، فتكون مواقفه -هي الأخرى- في خدمة دينه.

ويعقّب الإمام عليه السلام على هذه الجمل النَّيِّرة بقوله:

«فَمَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ شَـــدَّ ظُهُورَ الْمُؤمِنِينَ، وَمَنْ نَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ أَرْغَمَ أُنُوفَ الْمُنَافِقِينَ،مَنْ صَدَقَ فِي الْمَوَاطِنِ قَضَى مَا عَلَيْهِ، وَمَنْ شَنِىءَ الْفَاسِقِينَ وَغَضِبَ لله غَضِبَ اللهُ لَهُ وَأَرْضَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

هكذا يختم الإمام عليه السلام حديثه عن الإيمان بكيفية الدفاع عن حرماته، بقولين وعملين:

فبالكلمـــة يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، وبالثبات في الحرب ضدّ الكافرين، واتخاذ الموقف المعادي من الفاســـقين، يـــؤدّي المؤمن حق الدفاع عن دينه.

٥/ أبعاد الإيمان

حيث يكون الحق يكون الإيمـــان، فالإيمان يكون بكلّ الحق، إذ مادام الإيمان هو التســـليم، للحق، فإنّه لا يكون لهذا التسليم أيّ معيار آخر غير الحق.

ولعلّ الكلمة القرآنية التالية تبيّن هذه الحقيقةوهي:

«**الإيمان بآيـــات الله**» في مقابل «**الكفر بآيـــات الله**» لأنّ القرآن الكريم

يعتبر كلّ حقيقة هي آية من آيات اللّه.

فالإيمان بها يعني الإيمان بكلّ حقيقة، وحين يُعبر القرآن بـ (آيات الله) بدل الحق، فإنّه يسلب من غير اللّه سبحانه صفة الذاتية، لكي لا يوهم التعبير معنى من معاني الشرك باللّه.

قال اللّه تعالى:

﴿**وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**﴾(١).

في هذه الآية نجد الصلة بين آيات اللّه وبين الحق، أمّا آيات اللّه فإنّها حسب القرآن كلّ الخليقة، قال اللّه تعالى:

﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ**﴾(٢).

﴿**هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ**﴾(٣).

وهكذا يتدرّج الإيمان عبر الحقائق التالية حتى يكتمل:

أوّلاً: الإيمان باللّه سبحانه الخالق المدبّر.

ثانياً: الإيمان بالحقائق المشهودة باعتبارها آيات اللّه.

فاللّه سبحانه ﴿**قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ**﴾(٤).

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٤- ٥.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١٩.

(٣) سورة لقمان، الآية: ١١.

(٤) سورة طه، الآية: ٥٠.

﴿...وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[١].

ومن الحقائق المشـــهودة: البشـــر -بكل أصنافهم- لأنّهم جميعاً خَلقُ اللّه، قال اللّه تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّـــا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُـــعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...﴾[٢].

﴿يَا أَيُّهَـــا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْـــسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً...﴾[٣].

هكذا كان من أركان الايمان الاعترافُ بخلق السموات والأرض، وأنّها حقائق واقعة، والاعتراف بخلق البشر كلّ أولئك باعتبارها تجلّيات لأسماء اللّه سبحانه.

ثالثاً: الإيمان بسنن اللّه الحاكمة في الخلق، وأنّها ثابتة ولا تتطوّر، فكلّ هذه الأنظمة الطبيعية والإنســـانية التي تحيط بنا كلُّها سننٌ لا بدّ أن نعترف بها ونتكيّف معها.

قال اللّه تعالى:

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾[٤].

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.
(٣) سورة النساء، الآية: ١.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٦٢.

﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾(١).

وقال تعالى وهو يبيّن جانباً من سننه في خلق السموات والأرض: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ﴾(٢).

وقال سبحانه وهو يذكّرنا بأنه قد اجرى هذه السنن في العالم المحيط بنا وسخّرها لنا:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(٣).

رابعاً: الإيمان بأسماء اللّه الحسنى التي هي عناوين بارزة لسننه، وخطوط عريضة لحركة العالم ونشاط الطبيعة وفاعلية البشر.

فاللّه عزيز حكيم، والعالَم آية عزّته وآية حكمته، واللّه رحمن رحيم، ونِعَمه في الحياة شهادة رحمته الواسعة الدائمة، واللّه توّاب غفور، وحركة الإنسان نحو الإصلاح دليل توبة اللّه وغفرانه.

وهكذا سائر أسماء اللّه تتجلّى في الطبيعة وفي الإنسان(٤).

خامساً: الإيمان برسالات اللّه جميعاً، والتي هي الحبل المتصل بين اللّه وخلقه، ومذكّرات بنعمه وبآياته، ومنهاهج لحياة البشر وسبل السلام

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٧..

(٢) سورة الملك، الآية: ٣.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

(٤) في فصل آخر نستعرض جانباً من علاقة أسماء اللّه بسننه وبحركة الإنسان إن شاء اللّه.

والصراط المستقيم إلى رضوانه وجنانه.

فإذا كان الإيمان بالحق هو معيار مواقف الإنسان، فلا يجوز أن يفرّق الإنسان بين حق وآخر انطلاقاً من هوى العنصرية، أو تعصّب قومي، أو تحزّب طائفي أو ما أشبه.

ومن هنا قال اللّه تعالى:

﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾[1].

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾[2].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

6

بناء الإنسان الرسالي
في وصية الإمام علي لابنه
الإمام الحسن عليه السلام

بناء الإنسان الرسالي

جاء في الوصية ما يلي:

«أَيْ بُنَيَّ، إِنِّـــي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَـــنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وَسِـــرْتُ فِي آثَارِهِمْ حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ، بَلْ كَأَنَّنِي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرِّهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ، وَتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَـــهُ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ، وَرَأَيْـــتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الْوَالِدَ الشَّـــفِيقَ وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ وَأَنْتَ مُقْبِـــلٌ بَيْنَ ذِي النَّقِيَّةِ وَالنِّيَّةِ، وَأَنْ أَبْدَأَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللَّهِ وَتَأْوِيلِهِ، وَشَـــرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، لَا أُجَاوِزُ ذَلِكَ بِكَ إِلَى غَيْرِهِ، ثُمَّ أَشْفَقْتُ أَنْ يَلْبِسَكَ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ مِثْلَ الَّذِي لَبَسَهُمْ، وَكَانَ إِحْكَامُ ذَلِكَ لَكَ عَلَى مَا كَرِهْتُ مِنْ تَنْبِيهِكَ لَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِكَ إِلَى أَمْرٍ لَا آمَنُ عَلَيْكَ فِيهِ الْهَلَكَةَ، وَرَجَوْتُ أَنْ يُوَفِّقَكَ اللَّهُ فِيهِ لِرُشْدِكَ وَأَنْ يَهْدِيَكَ لِقَصْدِكَ، فَعَهِدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِي هَذِهِ وَأُحْكِمُ [اعْلَمْ] مَعَ ذَلِك».

لتحقيق هذه الغاية -بناء الإنســـان الرســـالي- نرى الأحاديث الشريفة تسير في اتجاهين:

الأوّل: نحو العقل وتنميته إثارته.

الثاني: نحو النفس وتزكيتها وتهذيبها.

وما أجدر بنا نحن المسلمين إذا أردنا أن نبني شبابنا وننمّي عقولنا ونزكّي أنفسنا أن نتوجّه للزّاد المقدّس الذي خلّفه لنا قادة الإسلام على صورة وصايا وعِظات، هي في الحقيقة جواهر الحكمة وعُصارة التجارب الرّساليّة تهدي للتي هو أقوم.

وفي العبارات الأخيرة من وصية الإمام علي عليه السلام إلى ولده الإمام الحسن عليه السلام، يريد أن يفهمه عليه السلام أنّه حاول أن يوضّح له الأمور حتى لا يقلّد الآخرين، وأن لا يتّبع أفكارهم لكي تكون لديه البصيرة الكافية لفهم عِبَر التاريخ.

ثمّ يوصي الإمام عليه السلام ابنه بعد ذلك أن يأخذ بسيرة آبائه والعاملين الصالحين من السابقين فيقول:

«فَلْيَكُنْ طَلَبُكَ ذَلِكَ -العلم- بِتَفَهُّم وَتَعَلُّم لَا بِتَوَرُّطِ الشُّبُهَاتِ وَعُلَقِ الْخُصُومَاتِ، وَابْدَأْ قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذَلِكَ بِالاسْتِعَانَةِ بِإِلَهِكَ عَلَيْهِ وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي تَوْفِيقِكَ، وَتَرْكِ كُلِّ شَائِبَةٍ أَدْخَلَتْ عَلَيْكَ شُبْهَةً وَأَسْلَمَتْكَ إِلَى ضَلَالَةٍ، وَإِذَا أَنْتَ أَيْقَنْتَ أَنْ قَدْ صَفَا لَكَ قَلْبُكَ فَخَشَعَ وَتَمَّ رَأْيُكَ فَاجْتَمَعَ، وَكَانَ هَمُّكَ فِي ذَلِكَ هَمّاً وَاحِداً فَانْظُرْ فِيمَا فَسَّرْتُ لَكَ، وَإِنْ أَنْتَ لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ مَا تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ مِنْ فَرَاغِ فِكْرِك وَنَظَرِكَ فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا تَخْبِطُ خَبْطَ الْعَشْوَاءِ، وَلَيْسَ طَالِبُ الدِّينِ مَنْ خَبَطَ وَلَا خَلَطَ، وَالْإِمْسَاكُ عِنْدَ ذَلِكَ أَمْثَلُ».

والإمام علي عليه السلام يشرح لابنه هنا أنّ من أراد أن يتعلّم الدين فما ذلك من أجل الجدل والمغالبة، ثمّ لا يكون التعلّم في وقت يكون الرأي فيه

غير مجتمع، والفِكْر غير مركّز، أي يكون من دون توتر وقلق نفسي، وإنّما يكون التعلّم في وقت الراحة، حيث نفسك خاشعةٌ للحق، مطمئنةٌ إليه، متوكلةٌ على اللّه سبحانه وتعالى، مركّزة في الأمر.

والإمام علي عليه السلام يُورِد هنا -بايجاز شديد- منهجه في العلم، حيث جمع كلّ الأخطاء التي يمكن أن يقع فيها الإنسان أثناء التعلّم فحذّر منها، ولو شئنا تفسير كلامه عليه السلام لكان يقتضي ذلك مؤلَّفاً طويلا.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام لا ينسى أن يذكّر ابنه بالموت -هادم اللذات-، ذلك لأنّ من طبيعة الإنسان الجهل والاسترسال مع الهوى، وعدم المبالاة وعدم تحمل المسؤولية، فما الذي يقهر النفس الجموح ويكبح هواها؟ إنّه ذكر الموت، حيث لا موعظة أكبر منه و«**كَفَى بِالْمَوْتِ وَاعِظاً**»[1].

ويحذّر الإمام عليه السلام ابنه من الغرور العلمي الذي هو آفة العقل، ويدعوه إلى تقييم الحقائق جميعاً، وعدم ردّ شيء منها بمجرّد غرابته عنده أو إشكاله في فهمه، فيقول عليه السلام:

«فَتَفَهَّمْ أَيْ بُنَيَّ وَصِيَّتِي، وَاعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ الْمَوْتِ هُوَ مَالِكُ الْحَيَاةِ، وَأَنَّ الْخَالِقَ هُوَ الْمُمِيتُ، وَأَنَّ الْمُفْنِيَ هُوَ الْمُعِيدُ، وَأَنَّ الْمُبْتَلِيَ هُوَ الْمُعَافِي، وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِيمَ إِلَّا عَلَى مَا خَلَقَهَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِ مِنَ النَّعْمَاءِ وَالِابْتِلَاءِ وَالْجَزَاءِ فِي الْمَعَادِ أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لَا نَعْلَمُ، فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلَى جَهَالَتِكَ بِهِ، فَإِنَّكَ أَوَّلَ مَا خُلِقْتَ خُلِقْتَ جَاهِلاً ثُمَّ عُلِّمْتَ، وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ الْأَمْرِ وَيَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأْيُكَ وَيَضِلُّ فِيهِ بَصَرُكَ ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَاعْتَصِمْ بِالَّذِي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ وَسَوَّاكَ، وَلْيَكُنْ لَهُ تَعَمُّدُكَ

(١) الكافي، ج٢، ص ٢٧٥.

وَإِلَيْهِ رَغْبَتُكَ وَمِنْهُ شَفَقَتُك».

كيف ينمّي الرساليّ العقلَ؟

ويستمر الإمام علي في نصيحة ابنه الإمام الحسن عليه السلام ليبيّن له صفات الإنسان الرسالي، وكيف ينمّي معارفه وعقله وبالتالي الخصال الحميدة عنده فيقول:

«أَيْ بُنَيَّ، تَفَهَّمْ وَصِيَّتِي وَاجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ، وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ لَكَ مَا تَرْضَى بِهِ لَهُمْ مِنْكَ، وَلَا تَقُلْ بِمَا لَا تَعْلَمُ، بَلْ لَا تَقُلْ كُلَّ مَا تَعْلَمُ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ».

ولو طبّق الواحد منّا هذه الوصية على نفسه لرأى كم تتحسّن أخلاقه السيّئة، وإلى أيّ مدى تصبح فاضلة.

إنّ الآفة التي تترصّد الرسالي هو أن يركبه الغرور والإعجاب بما لديه وهو يخالف تنمية عقله وعلمه، يقول الإمام علي عليه السلام:

«وَ اعْلَمْ أَنَّ الْإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ وَآفَةُ الْأَلْبَاب».

وبالمقابل الخشوع يزيد وينمي المعرفة.

«فَإِذَا أَنْتَ هُدِيتَ لِقَصْدِكَ فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّك».

دور الإحسان في تنمية العقل.

العقل ينمو بمقاومة الشهوات الذاتية والجهل الطبيعي عند البشر، والإحسان يساهم في كبح جماح الشّهوات وإخراج الإنسان من قوقعة ذاته

وشُــحّ نفسه، ولكي يُقدِم الإنسان على الإحســان -الذي سُمّي في القرآن مرة بأنّه عقبة[١]- يحثّ الإمام عليٌّ عليه السلام ابنَه بأســلوب رائع، حيث يذكّره بطريقه الشاق، حيث يقول عليه السلام:

«وَاعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ طَرِيقاً ذَا مَشَقَّةٍ بَعِيدَةٍ وَأَهْوَالٍ شَدِيدَةٍ، وَأَنَّهُ لَا غِنَى بِكَ فِيهِ عَنْ حُسْــنِ الِارْتِيَادِ وَقَدْرِ بَلَاغِكَ مِنَ الزَّادِ مَــعَ خِفَّةِ الظَّهْرِ، فَلَا تَحْمِلَنَّ عَلَــى ظَهْرِكَ فَوْقَ بَلَاغِكَ فَيَكُونَ ثِقْلاً وَوَبَــالاً عَلَيْكَ، وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَــكَ زَادَكَ فَيُوَافِيكَ بِهِ حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَاغْتَنِمْهُ، وَاغْتَنِمْ مَنِ اسْتَقْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ، وَاجْعَلْ وَقْتَ قَضَائِكَ فِي يَوْمِ عُسْرَتِك».

أي أنّ للإنســان عســرتين يوماً في الدنيا ويوماً فــي الآخرة، والقرض الحسن ينفع في كلا اليومين.

قوّة الإرادة تُنمّي العقل.

للوصول إلى القمّة تعترض الإنســان كثيرٌ من العقبات التي قد تؤدّي به إلى الحضيض، وكما العقبة -التي هــي طريق صعب في الجبل- التي إنْ زلّت فيها القدم هَوَتْ بصاحبها ألــف متر وأكثر؛ كذلك العقبة في الآخرة لاتــزلُّ بصاحبها إلّا فــي وادي جهنّم حيث الأفاعي كالــتلال والعقارب كالبغال أعاذنا اللّه منها.

والرسالي لا يخاف من ذلك الموقف يومئذٍ لأنّه لا ينفع الخوف يومذاك، وإنّما خوفه منه الآن إذْ لديه متســعٌ من الوقت للنجاة من ذلك الموقف بأنْ لا يُثقِل كاهله بما يُودِي به ساعة عبور العقبة الكأداء.

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَلاَ اقتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ سورة البلد، الآية: ١١-١٦.

يقول الإمام علي عليه السلام:

«وَاعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةً كَئُوداً لَا مَحَالَةَ مُهْبِطاً بِكَ عَلَى جَنَّةٍ أَوْ عَلَى نَارٍ، الْمُخِفُّ فِيهَا أَحْسَنُ حَالاً مِنَ الْمُثْقِلِ، فَارْتَدْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ خَزَائِنِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ قَدْ أَذِنَ بِدُعَائِكَ، وَتَكَفَّلَ بِإِجَابَتِكَ، وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ وَهُوَ رَحِيمٌ».

الدعاء يعصم العقل.

والعقل قد يضعف أمام عواصف الشّهوة والضغوط فيعصمه اللّه بالدعاء، وهنا يبدأ الإمام عليه السلام بالتّركيز على ضرورة العلاقة باللّه والتّخشّع له بالمناجاة والدعاء وقد حثَّ اللّه سبحانه وتعالى عباده المؤمنين على الإلحاح في دعائه فقال: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُم**﴾[1]، وإنّ من نعم اللّه على الإنسان أن يأذن له بالدعاء، ويتكفّل هو بالإجابة.

فباستطاعتك المثول بين يدي الباريء الكريم كيف شئت وأنّى شئت بلا حاجبٍ ولا واسطة ولا ترجمان، كما تفعل إذا أردت ملاقاة موظّف كبير، ولا إلى عريضة وطوابع للكتابة إلى أمير، وإنّما يقف العبد ليناجي اللّه تعالى بأيّ لغة كانت، وحتى الأخرس يناجي اللّه تعالى بلغة الإشارة والله سبحانه وتعالى يسمعه، وأَخْيب الناس وأخملهم وأفشلهم هو الذي لا يتضرّع بالدعاء.

يقول الإمام علي عليه السلام:

«لَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَاناً، وَلَمْ يَحْجُبْكَ عَنْهُ، وَلَمْ يُلْجِئْكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ إِلَيْهِ لَكَ، وَلَمْ يَمْنَعْكَ إِنْ أَسَأْتَ التَّوْبَةَ، وَلَمْ يُعَيِّرْكَ بِالْإِنَابَةِ، وَلَمْ

(١) سورة غافر، الآية: ٦٠.

يُعَاجِلْكَ بِالنَّقِمَةِ، وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ تَعَرَّضْتَ لِلْفَضِيحَةِ، وَلَمْ يُنَاقِشْكَ بِالْجَرِيمَةِ، وَلَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ فِي التَّوْبَةِ، فَجَعَلَ النُّزُوعَ عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْراً، وَفَتَحَ لَكَ بَابَ الْمَتَابِ وَالِاسْتِئْنَاف».

من أجل الستر على الفضائح لم يجشّم اللّهُ عبدَه عناء المثول بين يدي قسّيس للاعتراف أمامه بالذنوب والفضائح كما تدّعيه المسيحيّة المنحرفة، وإنّما يطلب المغفرة من اللّه سبحانه وتعالى مباشرة، وفي ذلك درس للرساليّ كيف يلتصق باللّه تعالى ويعود إليه ويلوذ به عند كلّ خطوة يظنّ فيها أنّه ابتعد أو انحرف عن الطريق السّوي، ليحاسب نفسه دون الحاجة إلى الخجل أمام توبيخ أو تقريع مسؤوليه.

يقول الإمام علي عليه السلام:

«فَمَتَى شِئْتَ سَمِعَ نِدَاءَكَ وَنَجْوَاكَ فَأَفْضَيْتَ إِلَيْهِ بِحَاجَتِكَ، وَأَنْبَأْتَهُ عَنْ ذَاتِ نَفْسِكَ، وَشَكَوْتَ إِلَيْهِ هُمُومَكَ، وَاسْتَعَنْتَهُ عَلَى أُمُورِكَ، وَنَاجَيْتَهُ بِمَا تَسْتَخْفِي بِهِ مِنَ الْخَلْقِ مِنْ سِرِّكَ، ثُمَّ جَعَلَ بِيَدِكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ فَأَلْحِحْ فِي الْمَسْأَلَةِ يَفْتَحْ لَكَ بَابَ الرَّحْمَةِ بِمَا أَذِنَ لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ، فَمَتَى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ خَزَائِنِهِ».

إنّك تستطيع أن تعتذر له عمّا بدا منك فيعفو عنك، ولكنْ بشرط أن تُلحّ عليه في الطّلب وتتخشَّع له في المسألة، مهما كبرت مسألتك فإنّ العطيّة على قدر المسألة، ثمّ إنّك مطالب ألاّ تقنط من الدعاء والإلحاح في المسألة حتى ولو تأخّرت الإجابة، فإنّك لا تدري الحكمة من التأخير.

يقول الإمام علي عليه السلام:

«فَأَلْحِحْ وَلَا يُقَنِّطْكَ إِنْ أَبْطَأَتْ عَنْكَ الْإِجَابَةُ، فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى قَدْرِ الْمَسْأَلَةِ، وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الْإِجَابَةُ لِيَكُونَ أَطْوَلَ لِلْمَسْأَلَةِ وَأَجْزَلَ لِلْعَطِيَّةِ، وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلَمْ تُؤْتَاهُ وَأُوتِيتَ خَيْراً مِنْهُ عَاجِلاً وَآجِلاً أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلَاكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيتَهُ، وَلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيمَا يَعْنِيكَ مِمَّا يَبْقَى لَكَ جَمَالُهُ أَوْ يُنْفَى عَنْكَ وَبَالُه».

الإنسان الرساليّ بين حبّ اللّه وخشيته.

تنصبّ اهتمامات الرّسالة الإسلامية على الإنسان لأنّه عنصر الحركة الرئيسي الذي ينشده الإسلام للإنسانية جمعاء، من هنا فإنّ بناء الكوادر والقيادات الواعية إلى جانب التّوعية الجماهيريّة همما دعامتا الثورة الحقيقيّة.

لذلك فإنّ على الأمّة أن تهتمّ اهتماماً شديداً ببناء الكوادر، كما أنّ على المهتمين بمستقبل الأمّة ومصيرها ألّا يدعوا فرصة لذلك إلّا ويغتنموها.

القادة يصنعون الرجال.

لقد قام الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة المعصومون عليهم السلام وهم قدوتنا في العمل بدور رئيسي في هذا الحقل، إذْ لا تجد منهم أحداً إلا ويهتم اهتماماً بالغاً بتربية الرجال من حوله.

فالرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قضى ثلاثة عشر عاماً يربّي الكوادر ويصنع الرجال ويدرّب القيادات لتحمّل المسئولية العظيمة التي ابتدأت في المدينة المنورة.

والإمام علي عليه السلام يقول عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

«إِنَّ رَسُولَ اَللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم أَدَّبَهُ اَللَّهُ، وَهُوَ أَدَّبَنِي، وَأَنَا أُؤَدِّبُ اَلْمُؤْمِنِينَ وَأُوَرِّثُ اَلْآدَابَ اَلْمُكْرَمِينَ»(١).

وها هو خليفة المسلمين وقائد القوات المسلّحة وإمام الأمّة ومُربّيها أمير المؤمنين عليه السلام وزعيم امبراطورية مترامية الأطراف، يقتطع من وقته هزيعاً ليأخذ بيد واحدٍ من تابعيه -وهو كميل بن زياد- ويصحر به في الفلاة ليبيّن له وصاياه المعروفة، وليربّيه ويربّي من وراءه من الرجال.

ومرة أخرى يشتري عبداً فيعتقه ثمّ لا يزال يربّيه حتى يصبح الثائر الكبير «**ميثم التمار**» رضوان اللّه عليه.

ونرى الإمام الحسن عليه السلام يهتم ببناء الرجال حتى آخر لحظة في حياته، حيث ينتهز تلك اللحظات الأخيرة قبل أن يزوره ملك الموت ليلقي بوصاياه الأخيرة إلى «**جنادة بن أمية**» تلك الوصايا التربوية المتكاملة المعروفة.

وعلى نفس النهج سار الأئمّة عليهم السلام في كلّ زمن حسب الحاجة التي تتطلّبها المرحلة، إذْ قد تقتضي المرحلة بناء القيادات بينما تأتي مراحل أخرى تشتدّ الحاجة فيها إلى تعبئة الأمّة.

فمثلاً الإمام عليّ عليه السلام يقضي خمساً وعشرين سنة من عمره الشريف يبني الكوادر ويهيّئ القيادات، بينما نجد الخمس السنوات الأخيرة من حياته الفاضلة كانت مرحلة تعبئة الطاقات ومواجهة التحديات والعمل الدؤوب على تصحيح المسيرة، بالرغم من أنّه لم يترك حتّى في هذه المرحلة بناء الكوادر.

---

(١) تحف العقول، ص ١٧١.

وبينما قضى الإمام الحسن عليه السلام وقته في إعداد الرجال وبناء الزعامات، قام الإمام الحسين عليه السلام -بالذّات في فترة إمامته- بتعبئة الأمّة وتوجيهها نحو مجابهة الأخطار التحريفيّة وتفجير الثّورة إزاء الوضع الفاسد.

وكذلك الإمام زين العابدين عليه السلام يقضي أكثر من ثلاثة عقود من عمره الكريم إماماًوقائداً ما انفكّ عن صُنع القيادات، حتى أنّ بعض الرويات تذكر أنّه يشتري العبيد ويقوم بتربيتهم، ثمّ إعتاقهم في سبيل اللّه، وتوجيههم لتوعية الجماهير في الأصقاع المختلفة، وإن صحّت الروايات فإنّ الإمام عليه السلام كان يقوم بتربية ألف رجل كلّ عام، وإنّ هذا لعمري عدد هائل جدّاً.

برامج إعداد الرجال.

إلاّ أنّ السؤال المطروح: ما هو البرنامج الثوري التربوي المتكامل لبناء الرجال؟

يعيش الإنسان وفق نظام متجانس بين أعضائه ونفسه وقلبه وجوارحه كما يسير هذا النظام وفق قوانين معينة، ولذلك فهو يستطيع أن يصلح أيّ عطب، ويهذّب أيّ انحراف يطرأ على أعضائه.

فلو ابتليت يدك بقرحة أعطاك الطبيب الدواء المناسب حيث يكون الدواء من جنس الداء، فالالتهاب لا يجدي معه سوى البنسلين، والضعف تنفعه الفيتامينات التي تقوِّي الجسم، فلا بد أن يستخدم الطبيب الطريق المناسب لعلاج المرضى.

كذلك بالنسبة لروح الإنسان، فللروح قنوات معيّنة إذا أرادت علاج الروح لابد من السير عبر هذه القنوات إلى أن تصل إلى المرض الكامن في الروح وتقضي على ذلك المرض، مثلاً لو كان شخص مبتلى بمرض

التكبّر، ولو أخذته إلى الطبيب النفساني فإنّه قد يفعل معه شيئاً لم تكن تتوقّعه! فهذا المتكبّر الذي يحسب نفسه أعلى من الجبال وأقوى من الحديد والموت، فقد يعامله الطبيب بلطف وليـن وينفخ فيه روح الثقة حتّى لتكاد تصرخ عليه: إنّك تزيده بهذا غروراً!

إنّ الطبيب (العارف) يعالجه بما نزعم نحن أنّه يزيده مرضاً، فالطبيب يخاطبه بعبارات كهذه: أحسنت، بارك اللّه فيك، أنت رجل ممتاز، أنت شخص قوي ومحترم، وكلّ الناس يقدرونك، والمجتمع يكرمك ويعتز بك، والله يحبّك والمستقبل معك، وما إلى ذلك من العبارات.

والطبيب بذلك إنّما يريد أن يعيد ثقته بذاته، ويمدّه بشحنات الاطمئنان النفسي والاستقرار الروحي.

والفارق بينك وبين الطبيب في هذا أنّك تنظر إلى الأعراض، بينما الطبيب شخّص الأسباب، وعرف أنّ سبب الداء إنّما كان عقدة الحقارة ومركب النقص الذي يحاول أن يستره بحجب زائفة من الغرور والكبرياء.

فمعالجة مثل هذا المرض لا تتأتّى من محاولة قمع الغرور واحتقار الكبرياء، أو معالجة ظاهر المرض دون أن تذهب إلى (الفيروس) الحقيقي الذي ولّد هذا المرض، إنّما تكون المعالجة بمحو العقدة ذاتها (عقدة الحقارة)، ومقاومة الإحساس بالضعف في ذاته، وآنئذٍ يصبح وبشكل عفوي إنساناً سويّاً.

فللنفس البشرية قنوات نستطيع عبرها أن نعالج أمراضها، واللّه سبحانه وتعالى خالق الإنسان، وملهم النفس فجورها وتقواها، هو أعلم بحقيقة الإنسان وطريقة معالجته، إذ يقول تعالى:

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَٰكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾[١]

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[٢].

ويصف اللّه سبحانه في القرآن الكريم: علاج النفس البشرية، ويؤدّب رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بتلك الوصفات ويحسن تأديبه، ثمّ يقوم الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بتأديب الأئمّة الأطهار عليهم السلام ابتداءً من أبيهم الإمام علي عليه السلام الذي بدأنا معا مرحلة التدبر في وصاياه التربوية الرسالية لنجله الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، وسوف نستمر في ذلك.

هنا نشير إلى أهم عناصر التربية التي تكوّن الإنسان الثوري وهي:

أوّلاً: الحب.

هناك فرق بين الحب والشهوة، إنّ الشهوة هي جلب الأشياء إلى الذات وقطف اللذات ممّا حلا وطاب والاستفادة منها شخصياً، بينما الحبّ هو العكس من ذلك فهو عطاء من الذات إلى الخارج لمنفعة وخدمة الآخرين

الشهوة استئثار، بينما الحبّ إيثار، والشهوة أخذ، أمّا الحبّ فهو عطاء.

الشهوة هي محاولة لإفناء الوجود في الذات، بينما الحبّ هومحاولة إفناء الذات في الوجود.

فإذا أحببت أحداً يعني أنّك تريد أن تنفعه وتعطيه وتفيده، بينما إذا اشتهيت تفاحة أو برتقالة فإنّك في الواقع تشتهيها بهدف أن تأكلها لتتحوّل إلى جزء من كيانك.

---

(١) سورة الواقعة، الآية: ٨٥.

(٢) سورة ق، الآية: ١٦.

وكذلك الأمر بالنسبة لشهوتك في السرير فإنّك تريد أن تنام عليه، وإذا اشتهيت البيت فإنّك إنّما تريد أن تسكنه وتحمي نفسك من الأنواء، وإنْ اشتهيت السيارة فلأنّك تريد ركوبها، وهكذا بالنسبة للأمور الاستهلاكية جميعاً فإنّها تنضوي تحت قائمة الشهوات.

أمّا حينما تحبّ اللّه سبحانه وتعالى والنبيّ والإمام والناس، وتحبّ ابنك أو أهلك أو أخاك فإنّما يعني ذلك أن تضحّي من أجلهم، وتعطي أغلى ما تملك في سبيلهم، وحبّ الناس هو الإحسان اليهم والتفاني في خدمتهم ورفع الحيف عنهم، من هنا فإنّ الفرق بين الأخذ والعطاء بعيد كالمسافة بين الأرض والسماء.

والإسلام يربّي الإنسان على الحب، يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«**هَلِ الدِّينُ إِلَّا الْحُبُّ؟ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾**[1]»[2].

كيف نزرع حبّ اللّه؟

إنّ الطريقة التي يتمكّن المربّي المؤمن بها زرع حبّ اللّه في قلب الرسالي هي التذكير الدائم بنعم اللّه وخيراته ورزقه، ورأفته بالعباد، وعين رعايته التي تدفع البلاء والنقم، والتأكيد على جمال اللّه وجلاله، وقوّته ورحمته، وعلمه بصفاته الحسنى جلّ وعلا.

ومن أحبّ اللّه فعلاً رغب في لقائه، ولقاؤه القريب يتحقّق في المثول بين يديه أثناء الصلاة التي يقول عنها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم «**جُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي**

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣١.
(٢) الخصال، ج١، ص ٢١.

فِي اَلصَّلَاةِ»[١]، واللقاء الدائم حينما يلتقي المؤمن عبر قنطرة الشهادة أو الرحيل الأبدي.

أحد الصحابة رضي اللّه عنه حلّ به الموت فلم يتمالك نفسه من البكاء، فاجتمع حوله الصحابة وسأله أحدهم: مِمَّ بكاؤك يرحمك الله؟

فأجاب: إنّي لا أبكي لدنياكم، ولكن لهفي لظمأ الهواجر وسهر الليالي الطوال.

أجل إنّه يبكي لأنّه يموت ولن يتمكّن من الصيام في لهيب أيام الصيف، كما يبكي لأنّ الموت سيمنعه من العبادة والتهجّد في ليالي الشتاء الطويلة التي يصفها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بقوله:

«اَلشِّتَاءُ رَبِيعُ اَلْمُؤْمِنِ يَطُولُ فِيهِ لَيْلُهُ فَيَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى قِيَامِهِ، وَيَقْصُرُ فِيهِ نَهَارُهُ فَيَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى صِيَامِهِ»[٢].

إنّه ذاهب إلى ربّه ومع ذلك يحنّ إلى مناجاته في الأسحار والناس نيام، وهل يدرك لذّة المناجاة تلك إلّا المؤمنون حقاً حيث يرخي الليل سدوله، ويهجع كلّ حيّ، ويسود السكونُ الليلَ، فيتفتّح قلب المؤمن لمناجاة الحبيب، يناجيه بحديث القلوب، ويراه بعيون البصائر، فهذا هو الحبّ، فآنئذٍ إذا قطّعت المحبّ في اللّه إرباً لم يحنّ القلبُ إلى أحد سوى اللّه سبحانه، كما قيل على لسان الإمام الحسين عليه السلام: في اللحظات الأخيرة من رحلة شهاته الدامية.

فلو قطّعتني في الحبّ إرباً ... لَمَا حنَّ الفؤاد إلى سواكا

---

(١) الكافي، ج٥، ص ٣٢١.
(٢) معاني الأخبار، ص ٢٢٨.

ولم يفقد أحداً من أصحابه يوم عاشوراء إلّا وتهلّل وجهه وأشرقت طلعته البهيّة أكثر فأكثر، لأنّه كان يعلم أنّه كلّما مضى واحد منهم اقترب لقاؤه بربه، يعني يقترب من الشهادة، وحينما ذُبِحَ ابنه الرضيع على يديه الكريمتين بسهم حرملة من الوريد إلى الوريد، أخذ دمه بين كفّيه وألقى به نحو السماء قائلاً: «**هوّن عليّ ما نزل أنه بعين الله**»، وحين وقع جريحاً لايقوى على النهوض راح يجمع التراب تحت رأسه الشريف، وشرع يصلي لربّه غير عابئ بما حوله من كتائب الأعداء وهي تموج كالبحر، لا يلتفت لأحد منهم ولكن إلى اللّه سبحانه وهو يقول:

«**إلهي رضاً برضاك لا معبود سواك**».

وذاك والده الإمام علي عليه السلام يصلي في المحراب وفي فخذه سهم نابت لا يمكنه أن يخرجه، فيأتي جرّاح ويشق فخذه وهوفي الصلاة ويخرج السهم ثمّ يشد مكانه ويجري الدم في المحراب، وبعد أن يفرغ الإمام عليه السلام من الصلاة يقع بصره على الدم فيتساءل: «**ما هذا!**»

واعجباه يا أمير المؤمنين! لقد أخرجنا السهم من فخذك! قال: «**والله ما أحسست بذلك**»!

وذلك الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام واقف يصلي فتدخل النار وتلتهم جزءً من غرفته، والنساء مزدحمون، البعض يأتي بالماء والبعض يأتي بالتراب والبعض يستغيث، والإمام متوجه إلى صلاته، وبعد أن ينتهي ويرى آثار الحريق يسأل: «**ماهذا؟**». فيجيبوه: يابن رسول اللّه، إنّ النيران كادت تلتهم الغرفة والناس يصرخون ويولون وأنت لم تحس؟! فقال: «**كنت مشغولاً بإطفاء نارٍ أخرى**»! أي نار الآخرة.

أجل، إنّ هذا هو الحبّ، فالمؤمن في سبيل اللّه يقتحم غمار الحروب والنيران إلّا أنّ جسمه لا يحسّ الأذى وهو لايشعر الألم، لأنّ القلب مشدود بالحق قد اتصل برباط مقدس مع الرفيق الأعلى!

عابس بن شبيب أحد أصحاب الحسين عليه السلام ينزع لامة حربه ويتجرّد من ملابسه الحربية؛ درعه وخوذته، ثمّ يتقدم شاهراً سيفه، فينادى: يا عابس هل جننتَ؟! فيجيب وهو ماض: نعم حبّ الحسين أجنّني!

هذا هو الحبّ، وأساس التربية الإسلاميّة تنمية هذا الحبّ، وإذا أحببت اللّه أحببت رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وأولياءه، ولا تحبّ اللّه إلّا إذا اتّبعت رسوله.

نحن إذا وقفنا للصلاة فكأنّنا نحارب الشيطان، ولكن الذي يحبّ ربّه ينبعث إلى الصلاة انبعاثاً كالسيل المندفع، لأنّ قلبه متلهّف للقاء اللّه.

كنت عند أحد المؤمنين وقد نام متأخراً في ليل صائف، وقبل أن أغفو أنا رأيته يفتح عينيه، ثمّ ينظر إلى النجوم ويتبيّن له أنّ الصبح قريب، وأنّ وقت قيام الليل قد ضاق، فهبّ من مرقده واثباً وكأنّ عقرباً لدغته، ثمّ خفّ إلى الصلاة والتبتل! فالحبّ إنْ لم يفعل بصاحبه هكذا أو أكثر فليس بحب.

ومن يحبّ الناس -لا سيما الفقراء والمستضعفين- سوف لا يبيت مبطاناً وحوله أكباد تحنّ إلى القرص، ولاينام شبعاناً وإلى جواره عوائل فقيرة، ولايمكنه أن يستأثر بنعيم الدنيا، وهو يعلم أنّ الآخرين لا نعيم لهم!

ومن أحبّ الناس لا يمكنه أن يفعل ذلك، وإنّما يثور من أجلهم من دون طمع في شهرة، ولارغبة في مال، أو من أجل سلطة أو منصب وإنّما للّه.

جاءت امرأة فقيرة إلى أحد المؤمنين الثائرين من بني هاشم وطلبت منه المعونة فنظر إليها، وبعد أن أعطاها الميسور قال لها: أنت وأمثالك

تدفعون بنا إلى القتل!

وما مضت أيام حتى خرج ثائراً واستشهد مع أصحابه، فالذين يحترقون من أجل الجماهير المغلوبة على أمرها هم الذين يحبون اللّه حقاً ويحبّون عباده، بل ويشـــمل حبّهم كلّ الموجودات، في قلبه مهرجان الحبّ يتسع لك مخلوق.

ثانياً: الخوف.

فما دامت النهاية الحتميّة غير معروفة الميعاد فإنّ الخوف منها سيستمر مع الإنسان في كلّ لحظة.

من هنا فإنّ المؤمن يتوقّى المحاذير ويعيش بانضباط تام في حالة عالية من التقوى والخشوع لله سبحانه وتعالى.

سُئل أحد الصالحين عن التقوى ما هي؟ فأجاب: هـل مـررت بطـريق مليء بالأشواك في يـوم ما؟

فقال: نعم، قال: فما صنعت؟ قال: كنت أتقيها. قال: فتلك هي التقوى.

فالتقوى أن تمشي في العالم وفق خريطة المتقي في الدنيا، كمن يسلك حقلاً من الألغام خلال الحرب، فلو تجاوز الخريطة ولم يعمل طبقها فإنّه يحتمل أن يدوس على لغم فينفجر ويتمزّق في الهواء.

ولذلك فإنّ الأئمّة عليهم السلام كانوا يؤكّدون على ضرورة الخوف من الآخرة.

دعنا نعود الآن إلى وصية الإمام علي عليه السلام لنجله الإمام الحسن عليه السلام التي ذكرنا قسماً منها في الحديث السابق، ونستقي منها المنهج الإسلامي في تربية المؤمن الرسالي، يقول الإمام:

«أَيْ بُنَــيَّ، إِنِّي قَدْ أَنْبَأْتُكَ عَــنِ الدُّنْيَا وَحَالِهَا وَزَوَالِهَــا وَانْتِقَالِهَا بِأَهْلِهَا، وَأَنْبَأْتُــكَ عَنِ الْآخِرَةِ وَمَا أُعِدَّ لِأَهْلِهَا فِيهَا، وَضَرَبْتُ لَكَ فِيهِمَا الْأَمْثَالَ، إِنَّمَا مَثَلُ مَنْ أَبْصَرَ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَــفْرٍ نَبَا بِهِمْ مَنْزِلٌ جَدْبٌ فَأَمُّوا مَنْزِلاً خَصِيباً وَجَنَاباً مَرِيعاً».

حين نعرف حقيقة الدنيا.

يبيّن الإمام عليه السلام أنّ المؤمن هو من يعــرف الدنيا وحقيقتها ويضرب لذلك مثلاً، فمثل من عرف حقيقة الدنيا كمثل قوم مســافرين رأوا مكانهم قفراً لا مــاء ولا كلأ، فتحرّكوا باتجاه مكان آخر حيــث الخصب والمياه والمراتع، ثمّ يقول:

«فَاحْتَمَلُوا وَعْثَاءَ الطَّرِيقِ وَفِرَاقَ الصَّدِيقِ وَخُشُــونَةَ السَّــفَرِ فِي الطَّعَامِ وَالْمَنَامِ لِيَأْتُوا سَــعَةَ دَارِهِمْ وَمَنْزِلَ قَرَارِهِمْ، فَلَيْسَ يَجِدُونَ لِشَــيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَلَماً، وَلَا يَرَوْنَ نَفَقَةً مَغْرَماً، وَلَا شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ»

إنّهــم لايعبؤون بأتعاب الســفر أو فراق الأحبــة، ويهوّنون الأمر على أنفسهم بما ينتظرهم من راحة عندما يصلون مرامهم، وهذا مثل أهل الدنيا العارفين بحقيقتها، فإنّما هي كالأرض القفر، وإنّما سيجدون أمانيهم هناك في الآخرة، فيتحمّلون وعثاء السفر ليصلون إلى مرامهم.

لماذا الغرور بالدنيا؟

يقول الإمام عليه السلام:

«وَمَثَلُ مَنِ اغْتَــرَّ بِهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خِصْــبٍ فَنَبَا بِهِمْ إِلَى مَنْزِلٍ جَدْبٍ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِمْ وَلاَ أَهْوَلَ لَدَيْهِمْ مِنْ مُفَارَقَةِ مَا هُمْ فِيهِ إِلَى مَا

يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ وَيَصِيرُونَ إِلَيْه».

وهذا هو مثل من اغترّ بالدنيا ورَكَن إليها ونَسِي الآخرة.

إنّ هذا المغتر سيفاجأ حينما يأتيه ملك الموت بشكل مهيب، يقف على رأسه وبيده مقرعة من نار ويصيح: أخرج روحك بنفسك. والروح عزيزة ويصعب عليه أن يفارق المال والعيال والأهل والأحبّة، إلّا أنّ عليه الآن أن يخرج روحه هو بنفسه!

أمّا المؤمن فإنّ الأمر مختلف تماماً معه، فملك الموت يأتيه بصورة حسنة كصديق أو قريب، وربما لا يُفْهِمه بأنّه ملك الموت، فيبدأ يحاوره ويزهّده في الدنيا، محاولاً إقناعه بأنّه ملّ منها، ويذكر له الآخرة ويشوّقه لما ينتظره من نعيم لا يبلى، فإنْ أبى ومانع واحتج بأنّه سيفارق إخوته المؤمنين، فإنّ ملك الموت آنئذٍ يكشف له عن النعيم المقيم في الآخرة ويقول له: انظر، بيتك هناك، وأصدقاؤك هم أولئك الشهداء والصديقون والأنبياء والأولياء وحسن أولئك رفيقاً. فيوافق المؤمن فتُؤخذ روحه.

هذا هو ملك الموت، وعلى الإنسان أن يختار الطريقة التي يحبّ أن يتعامل بها ملك الموت معه.

منهج الإسلام في طلب العلم

يقول الإمام علي عليه السلام:

«وَقَرَعْتُكَ بِأَنْوَاعِ الْجَهَالاتِ لِئَلاَّ تَعُدَّ نَفْسَكَ عَالِماً، فَإِنْ وَرَدَ عَلَيْكَ شَيْءٌ تَعْرِفُهُ أَكْبَرْتَ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْعَالِمَ مَنْ عَرَفَ أَنَّ مَا يَعْلَمُ فِيمَا لاَ يَعْلَمُ قَلِيلٌ فَعَدَّ نَفْسَهُ بِذَلِكَ جَاهِلا».

فالتقريع بأنواع الجهالات يعيد الإنسان إلى واقعه حتّى لا يتصوّر أنّه قد بلغ الكمال في العمل، فالغرور حجاب كثيف بين الإنسان وبين الحقائق.

والعالم هو الذي يذكر نواقصه والأعمال التي لم يستطع أن يفعلها، أمّا الأعمال التي أنجزها فإنّه ينساها حتى يبقى باحثاً دائماً عن العلم ولايغتر.

يقول الإمام عليه السلام:

«فَازْدَادَ بِمَا عَرَفَ مِنْ ذَلِكَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ اجْتِهَاداً، فَمَا يَزَالُ لِلْعِلْمِ طَالِباً وَفِيهِ رَاغِباً وَلَهُ مُسْتَفِيداً وَلِأَهْلِهِ خَاشِعاً مُهْتَمّاً، وَلِلصَّمْتِ لَازِماً وَلِلْخَطَإِ حَاذِراً وَمِنْهُ مُسْتَحْيِيا».

إنّ العلم والغرور لايجتمعان، لأنّ المغرور لا يخشع لعالم ولايرغب في مزيد من المعرفة، ولايهتم بمفيد، أمّا العارف بجهله والطالب للاستفادة فإنّه يخشع للعلماء ويلازم مجالسهم مقتدياً بسيرتهم.

وقد لخّص أهل البيت عليهم السلام هذا الأمر حيث قالوا:

«إِنَّ النَّاسَ أَرْبَعَةٌ: رَجُلٌ يَعْلَمُ وَيَعْلَمُ أَنَّهُ يَعْلَمُ فَذَاكَ مُرْشِدٌ عَالِمٌ فَاتَّبِعُوهُ، وَرَجُلٌ يَعْلَمُ وَلَا يَعْلَمُ أَنَّهُ يَعْلَمُ فَذَاكَ غَافِلٌ فَأَيْقِظُوهُ، وَرَجُلٌ لَا يَعْلَمُ وَيَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ فَذَاكَ جَاهِلٌ فَعَلِّمُوهُ، وَرَجُلٌ لَا يَعْلَمُ وَيَعْلَمُ أَنَّهُ يَعْلَمُ فَذَاكَ ضَالٌّ فَأَرْشِدُوهُ»[1].

ويواصل الإمام علي عليه السلام وصيته:

«وَقَدْ نَبَّأَكَ اللَّهُ عَنْهَا -أي الدنيا- وَنَعَتْ -أوضحت- لَكَ نَفْسَهَا وَكَشَفَتْ عَنْ مَسَاوِيهَا، فَإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَى مِنْ إِخْلَادِ أَهْلِهَا إِلَيْهَا وَتَكَالُبِهِمْ عَلَيْهَا،

(١) بحار الأنوار، ج١، ص ١٩٥.

وَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلَابٌ عَاوِيَةٌ وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ يَهِرُّ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، يَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا وَكَبِيرُهَا صَغِيرَهَا، قَدْ أَضَلَّتْ أَهْلَهَا عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ، وَسَلَكَتْ بِهِمْ طَرِيقَ الْعَمَى، وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنْهَجِ الصَّوَابِ، فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا وَغَرِقُوا فِي فِتْنَتِهَا وَاتَّخَذُوهَا رَبّاً، فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبُوا بِهَا وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا».

كنت مرّة في طريق خارج المدينة فرأيت على الطريق دابة ميتة قد تعفّنت وتفسّخت، ورأيت حولها حوالي ثلاثين إلى أربعين كلباً يتنازعون عليها!

فابتسمت لِمَا رأيت وهتفت بنفسي: هذه هي الدنيا العفنة الزائلة، والناس يتكالبون عليها كهذه الكلاب، قد لخّصتها هذه الصورة أمام ناظري!

إنّ الزهّاد يرون الدنيا كهذه الجيفة النتنة، بينما الناس متكالبون عليها يظنّون أنّها الخير، وهي ليست بخير: «**مَا خَيْرٌ بِخَيْرٍ بَعْدَهُ اَلنَّارُ وَمَا شَرٌّ بِشَرٍّ بَعْدَهُ اَلْجَنَّةُ**»[1] كما قال أمير المؤمنين عليه السلام.

يقول الإمام علي عليه السلام:

«**فَإِيَّاكَ يَا بُنَيَّ أَنْ تَكُونَ قَدْ شَانَتْهُ كَثْرَةُ عُيُوبِهَا نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ، قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا سُرُوحُ عَاهَةٍ بِوَادٍ وَعْثٍ لَيْسَ لَهَا رَاعٍ يُقِيمُهَا رُوَيْداً حَتَّى يُسْفِرَ الظَّلَامُ كَأَنْ قَدْ وَرَدَتِ الظَّعِينَةُ يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَئُوب**».

وهذا الكلمات من أبلغ كلمات الإمام عليه السلام التي يصوّر فيها باختصار شديد حالة الناس العابثين اللاهين الغافلين عمّا ينتظرهم كيف أنّهم كالنعم المعلّقة أي الحيوانات المربوطة، وأخرى مهملة متروكة تسرح كيف تشاء في واد شائك ولكن كما يقول عليه السلام في موضع آخر:

---

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٣٨٧.

«اَلنَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا اِنْتَبَهُوا»[١].

القناعة راحة القلب وخفة الميزان.

ثمّ يقول:

«وَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ، وَإِنْ كَانَ لَا يَسِيرُ أَبَى اللَّهُ إِلَّا خَرَابَ الدُّنْيَا وَعِمَارَةَ الْآخِرَةِ».

من كان راكباً الليل والنهار فإنّه إلى نهاية أكيدة، ويكفي أن نعلم أنّ الدنيا فانية والآخرة هي الباقية، فهل من مدّكر؟!

ثمّ يقول الإمام عليه السلام:

«أَيْ بُنَيَّ، فَإِنْ تَزْهَدْ فِيمَا زَهَّدَكَ اللَّهُ فِيهِ مِنَ الدُّنْيَا وَتَعْزِفْ نَفْسَكَ عَنْهَا فَهِيَ أَهْلُ ذَلِكَ، وَإِنْ كُنْتَ غَيْرَ قَابِلٍ نَصِيحَتِي إِيَّاكَ فِيهَا فَاعْلَمْ يَقِيناً أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ، وَلَنْ تَعْدُوَ أَجَلَكَ، وَأَنَّكَ فِي سَبِيلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ فَاخْفِضْ فِي الطَّلَبِ وَأَجْمِلْ فِي الْمُكْتَسَبِ، فَإِنَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَى حَرَبٍ، وَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِنَاجٍ وَكُلُّ مُجْمِلٍ بِمُحْتَاجٍ، وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ وَإِنْ سَاقَتْكَ إِلَى رَغْبَةٍ فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ بِمَا تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضاً، وَلَا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللَّهُ حُرّاً، وَمَا خَيْرُ خَيْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِشَرٍ وَيُسْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِعُسْرٍ».

إنّ هذه الوصية موجّهة لنا قبل أيّ شيء، ونحن الذي ربما لم نتّعظ بوصايا الإمام علي عليه السلام وتزهيده لنا في الدنيا.

إنّه يقول لنا إذا كان ولا بدّ لكم من الذهاب وراء الدنيا فليكن ذلك بلطف لا لهثاً مستمراً وراءها. اسعَ قليلاً فإذا حصلت على شيء فاقنع بما

(١) عيون الحكم والمواعظ، ص ٦٦.

حصلــت عليه، وقل الحمد للّه لأنّك قد تلهــث وراء الدنيا وبدل أن تصل إلى آمالك تصل إلى حرب!

والنــاس الذين عملوا باعتدال للدنيا بما يتناســب مع طاقاتهم لم يبقوا فقراء عمل عادي حســاة مريحــة، وربما يحصل أكثر ممّــا يحصل عليها اللاهث وراء الدنيا والذي يتعب نفسها من أجلها.

ويقول الإمام علي عليه السلام:

«وَإِنْ سَاقَتْكَ إِلَى رَغْبَةٍ فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ بِمَا تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضاً»

فيا أيّها اللاّهث وراء الدنيا هل ستنفعك الأموال التي حصلت عليها بعد أن أفنيت جسمك وتدهورت صحتك في جريك وراء الدنيا ؟

لا تعطي جسمك وروحك وكلّ ما عندك في سبيل المال، وماذا ينفعك الثراء إذا كان جســمك ونفسك في عناء لا تذوق للراحة طعماً ولاتغمض بالسكينة جفناً؟!

ثمّ يقول عليه السلام كلمته المشهورة في الحرية:

«وَلاَ تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللَّهُ حُرّاً».

محذّراً ومذكّراً بأنّ اللّه خلقك حــراً، فلا تجعل طمعك يصيّرك عبداً، فخالقك لم يجعلك عبداً لغيرك، ولكن طمعك هو الذي يجعلك كذلك.

«وَمَا خَيْرُ خَيْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِشَر وَيُسْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِعُسْر».

هذا جانب من منهج الإسلام في تربية الإنسان بإثارة عقله وإقناعه بترك الدنيا والتفرّغ للحياة الآخرة، نسأل اللّه العلي القدير أن يجعلنا منهم.

تعاليم الإسلام في التربية

إنّ برامج القرآن ووصايا رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم وتعاليم أهل بيته الكرام من الأئمّة الهداة المهديين عليهم السلام تهدف -فيما تهدف- هذا النوع من التربية.

إنّ حديثاً كحديث رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم الذي يقول:

«إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ اَلْأَخْلَاقِ»[1].

لا يتصل -هذا الحديث- ببناء الشخصية الرسالية الثورية وحسب، وإنّما هو مفتاح التربية الاجتماعية أيضاً، فإنّ المجتمع الذي تتركّز فيه النفسية كعقدة الحقارة أو الضعة، أو عقدة أوديب أو غيرها، لا يستطيع أن يثور ضد أعداءه لتفكّكه وعدم استقراره، كما لا يستطيع أن يثور مجتمع لا يَصْدق فيه الأخ مع أخيه ولا يُخْلص له، ومعظم الأحاديث تحذّرنا من النتائج السلبية الواضحة لهذه السلوكيات الاجتماعية، فقد ورد في الحديث مثلاً: (إياكم والتدابر والتقاطع. لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولى عليكم شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم)[2]

فهل للتدابر وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علاقة بتولية الآخرين؟ بلى، إذا كان أفراد المجتمع متدابرين ومتخالفين يأتي العدو فيأخذهم جميعاً، كما حدث بالفعل في بعض المجتمعات.

أجل، إنّ الإنسان الفرد لا يمكن أن يعيش مستقلاً موحّداً للّه غير مشرك به إنْ كانت نفسه مركزاً للصفات الفاسدة وبؤرة للخلقيات الرذيلة، فكيف بالمجتمع إن كان كذلك؟!

---

(١) مكارم الأخلاق، ص ٨.

(٢) نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام، ج ٣، ص ٧٧.

من هنا نستطيع أن نتبيّن قيمة وصية الإمام علي عليه السلام لابنه الإمام الحسن عليه السلام، والتي يطرح فيها برنامجاً متكاملاً لتربية الفرد لأبنائه، فقد بدأ الوصية بالحديث عن البرامج العلمية والتعليمية، ثمّ بالتوجيه إلى ذكر الموت، ثمّ ذكر عِبَر التاريخ بإعطائنا منظاراً تاريخياً ننظر عبره إلى الماضي والمستقبل، ثمّ تطرّق بعد ذلك إلى سلسلة من الوصايا الاجتماعية التي لو طبّقناها -وأرجو أن نطبّقها- لنزلت علينا بركات اللّه وانتصرنا على الأعداء إن شاء اللّه، يقول الإمام علي عليه السلام:

«وَمِنْ خَيْرِ حَظِّ امْرِئٍ قَرِينٌ صَالِحٌ».

أليست هذه وصية ثورية؟ الإمام عليه السلام يريد أن يتجمّع الصالحون مع بعضهم ويشكّلوا بذلك الخلايا الاجتماعية الرسالية القادرة على التصدّي للأوضاع الفاسدة.

ثمّ يقول عليه السلام:

«فَقَارِنْ أَهْلَ الْخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ، وَبَايِنْ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ عَنْهُمْ، وَلَا يَغْلِبَنَّ عَلَيْكَ سُوءُ الظَّنِّ فَإِنَّهُ لَا يَدَعُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ خَلِيلٍ صُلْحاً -أو صفحاً: أي إعراضاً-».

لأنّ سوء الظنّ بين الأصدقاء يزرع بينهم حبّ الانتقام ويفصم حبل المودّة ويفسخ الثقة من بينهم، وبعد ذلك يقول عليه السلام:

«بِئْسَ الطَّعَامُ الْحَرَامُ، وَظُلْمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ، وَالْفَاحِشَةُ كَاسْمِهَا، التَّصَبُّرُ عَلَى الْمَكْرُوهِ نَقْصٌ لِلْقَلْبِ [يَعْصِمُ الْقَلْبَ]»

من الناس من لا يمتلكون الصبر ولكن عليهم أن يُنَمّو صفة الصبر في أنفسهم بالتصبّر واحتمال الأذى، فمن احتمل صفة يكاد أن يصل إليها، ويقول الإمام عليه السلام:

«وَإِنْ كَانَ الرِّفْقُ خُرْقاً كَانَ الْخُرْقُ رِفْقاً»

نحن في بعض الأوقات نحتاج إلى أن نثور ونتمرّد ونخترق القوانين، كما نحتاج في أوقات أخرى أن نكون هادئين ونتحمّل الصعاب، فعملية الخرق أو الرفق إنّما هي خاضعة لتخطيط الإنسان لعقله ووعيه وبصيرته وليست لارتجالياته.

«وَرُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً وَالدَّاءُ دَوَاءً، وَرُبَّمَا نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ وَغَشَّ الْمُسْتَنْصَحُ».

فعلى الإنسان أن لا يسترسل في الحياة، فربما الناصح ينصح وربما الناصح يغش، وربما غير الناصح ينصح، إذن علينا أن نفكّر دائماً وأن لانسترسل ونشغل عقولنا.

«وَإِيَّاكَ وَالِاتِّكَالَ عَلَى الْمُنَى فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْكَى».

فالأحمق هو الذي يمنّي نفسه، أمّا العاقل فإنّه يعتمد السعي والحركة كي لا تقعده أمانيه بالتماطل عن الوصول إلى أهدافه الدنيوية والأخروية.

«ذَكِّ قَلْبَكَ بِالْأَدَبِ كَمَا تُذَكَّى النَّارُ بِالْحَطَبِ، وَلَا تَكُنْ كَحَاطِبِ اللَّيْلِ وَغُثَاءِ السَّيْلِ».

إنّ الأدب يزيد القلب نزاهة واشتعالاً بحبّ الحياة والخير، كما يزيد الحطب النار التهاباً واشتعالاً، فحسن الأدب هو الذي يمحو من القلب العقد وأوساخ الشهوت والأطماع، ليوجّهه نحو العطاء والبذل والشعور بالراحة واللذة من خلال التعامل بالحسنى، بعكس الأناني الحقود الذي لا يستشعر سوى الضجر الدائم كالجسد القذر المثقل بالأمراض والتعب.

وهنا علـــى المؤمن أن ينتقي من الآداب ما ينفع، فما كلّ مكتوب بنافع، فقـــد نجمع الحطب في الليل فنرى في النهار أنّه مجرّد مجموعة أشـــواك، أو كغثاء الســـيل الذي يصوّر لنا السيل شـــيئاً كثيراً وعندما نضع يدنا نجده لاشيء. ثمّ يوجه الإمام عليه السلام النصحية حول الاستقامة في السيرة قائلاً:

«وَكُفْرُ النِّعْمَةِ لُؤْمٌ، وَصُحْبَةُ الْجَاهِلِ شُؤْمٌ، وَالْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ، وَخَيْرُ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَكَ، وَمِنَ الْكَرَمِ لِينُ الشِّيَمِ».

فمن حق المُنْعِم أن يُشـــكر لا أن يُجحد، إذ إنّ من الناس من يقول لمن ينعم عليه بشيء: إنّك لم تصنع لي شيئاً، إنّما نفّذتَ الواجب عليك! وهذا غير صحيح لأنّه لؤم.

إنّ الكرم ليس بالمال فحسب، والذي لايملك المال قد يملك الأخلاق الفاضلة والعفو والبشاشة. ثمّ يقول عليه السلام:

«بَادِرِ الْفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّة».

وهذا أقوى سلاح يمتلكه الثوري إذا امتلك عنصر المبادرة وترك عدوّه في دوامـــة من ردود الفعل، والبعض يترك الفرصـــة دون اغتنامها، وفوت الفرصة غصة إذ إنّها لا تعود إليك.

ويؤكّد الإمام عليه السلام الفكرة ذاتها بتعبير آخر قائلاً:

«مِنَ الْحَزْمِ الْعَزْمُ، مِنْ سَبَبِ الْحِرْمَانِ التَّوَانِي».

بعد ذلك يلفت الإمام عليه السلام النظر الى مسألة هامّة قد يتعرّض الكثير منا لها، ألا وهي التفريط في الزاد؛ زاد المسيرة حيث لا ننتبه للمأساة إلّا حين نمدّ الأيدي إلى اللئام. يقول الإمام عليه السلام:

«وَمِنَ اَلْفَسَادِ إِضَاعَةُ اَلزَّادِ».

ثــمّ يقول عليه السلام: «لَا تَبِيتَنَّ مِنْ أَمْرٍ عَلَــى غَرَرْ». أي لا تأتِ عملاً تعتذر منه، ويضيف عليه السلام:

«مَنْ حَلُمَ سَادَ، وَمَنْ تَفَهَّمَ ازْدَادَ، وَلِقَاءُ أَهْلِ الْخَيْرِ عِمَارَةُ الْقُلُوبِ، سَاهِلِ الدَّهْرَ مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْمَحَ بِك مَطِيَّةُ اللَّجَاجِ، وَإِنْ قَارَفْتَ سَيِّئَةً فَعَجِّلْ مَحْوَهَا بِالتَّوْبَةِ، وَلَا تَخُنْ مَنِ ائْتَمَنَكَ وَإِنْ خَانَكَ، وَلَا تُذِعْ سِــرَّهُ وَإِنْ أَذَاعَهُ، وَلَا تُخَاطِرْ بِشَيْءٍ رَجَاءَ أَكْثَرَ مِنْهُ، وَاطْلُبْ فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مَا قُسِمَ لَكَ. خُذْ بِالْفَضْلِ، وَأَحْسِنِ الْبَذْلَ، وَقُلْ لِلنَّاسِ حُسْناً».

كلّ هذه الصفات من شــأنها أن تخلق الإنســان الثوري، إنّ الإنســان المنضبــط يكتم غيظه، فيحبّب إليه الناس فيســود بحلمه مع ما يمتلك من ميزات قيادية أخرى، ويزداد قرباً لأصحابه بالتفهّم والتقاء أهل الخير، وهو لانضباطه لا يذيع سرّاً ولا يخون من ائتمنه، ولا يترك ما بيده طعماً في أكثر منه، ولا يقعد عن السعي طلباً لما قسم اللّه له، ودأبه قول الحسن لمستمعيه.

والمجتمع الذي يتربّى على هذه الأســس التربويــة هو مجتمع يصلح للثورة.

ويتابع الإمام عليه السلام تربية نجله الإمام الحسن عليه السلام بالقول:

«وَأَيُّ كَلِمَةِ حُكْمٍ جَامِعَةٍ أَنْ تُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَتَكْرَهَ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لَهَا، إِنَّكَ قَلَّ مَا تَسْلَمُ مِمَّنْ تَسَرَّعْتَ إِلَيْه».

أي لا تتســرّع في صداقاتك ومعارفك، فإذا أردت أن تتعامل مع الناس فاختبر من تريد صداقته، فإذا اختبرته تعامل معه كما تحبّ أن يتعامل معك كي لا تندم فيما بعد.

«وَاعْلَمْ أَنَّ مِنَ الْكَــرَمِ الْوَفَاءَ بِالذِّمَمِ وَالدَّفْعَ عَنِ الْحُــرُمِ، وَالصُّدُودُ آيَةُ الْمَقْتِ، وَكَثْرَةُ الْعِلَلِ آيَةُ الْبُخْلِ، وَلَبَعْضُ إِمْسَاكِكَ عَنْ أَخِيكَ مَعَ لُطْفٍ خَيْرٌ مِنْ بَذْلٍ مَعَ جَنَفٍ -أي الجور-، وَمِــنَ التَّكَرُّمِ صِلَةُ الرَّحِمِ وَمَنْ يَرْجُوكَ أَوْ يَثِقُ بِصِلَتِكَ إِذَا قَطَعْتَ قَرَابَتَكَ، وَالتَّحْرِيمُ وَجْهُ الْقَطِيعَةِ».

أجل، إنّ الامساك مع البشاشــة خيرٌ من العطاء الذي يستهدف التسلّط والظلم، كما أنّ الصداقة لاتكون بالثرثرة، وإنّما بإســداء الجميل وحسن العشرة والألفة. ثمّ يقول الإمام عليه السلام:

«احْمِلْ نَفْسَــكَ مَعَ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ عَلَى الصِّلَــةِ، وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَى اللُّطْفِ وَالْمَسْأَلَةِ، وَعِنْدَ جُمُودِهِ عَلَى الْبَذْلِ، وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُوِّ، وَعِنْدَ شِــدَّتِهِ عَلَى اللِّينِ، وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَى الِاعْتِذَارِ حَتَّــى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ».

وهذه صفات الرســالي أن لا يواجه أخطــاء أخوته بالمثل، ولا يحاول أن يتصيّد أخطاء إخوته ويســجّلها عليهم ويشهّر بهم، بل عليه أن يعذرهم ويتلطّف بهم، ويصلهم كأنّه لهم عبد، أي عُدّ نفسك عبداً لصديقك.

وهذه النصيحة هي للجانبين، فأنت تحسب نفسك عبداً له وهو يحسب نفسه عبداً لك، لكي يعيش التجمّع حياة أُلفةٍ ومحبّة.

ويذكر الإمام عليه السلام أيّ نوع من الأخوان يمكن التعامل معه بهذه الطريقة إذ يقول:

«وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ وَأَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِه».

فليــس كلّ صديــق جدير بتلك المعاملــة، فقد تصادف شــيطاناً فهل تؤاخيه؟ لنبحث بجدٍّ عن صديق ونكتشفه ونتعامل معه بالإحسان والإيثار،

ولا ننتظر منه أن يكون هو كذلك قبل أن نبدأه بالخير.

كقصّة ذلك الطفل الذي أعطته أمّه تفاحة وأمرته بأن يقسمها بينه وبين اخته قسمةُ ابنٍ فاضلٍ حَسَن الأدب، فسألها: ما هي صفة الابن الفاضل حسن الأدب؟ فقالت: هو الذي يُعطي لأخته القسم الأكبر من التفاحة إذا قسمها بينه وبينها، فما كان من الابن إلّا أن أعطى التفاحة لأخته وقال لها: اقسميها قسمة البنت الفاضلة الحسنة الأدب!

فهناك من الناس من يريد أن يعطي لصديقه التفاحة ليكون صديقه حسن الأدب وليس هو، فهل الصديق أولى بالخير منه؟ لماذا ينتظر أن يحسنوا إليه الآخرون؟ فالإمام عليه السلام يخاطبنا في مناسبة أخرى قائلاً:

«لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: إِنَّ أَحَداً أَوْلَى بِفِعْلِ اَلْخَيْرِ مِنِّي، فَيَكُونَ وَاَللَّهِ كَذَلِكَ»[1].

ثمّ يقول عليه السلام في الوصية في صدد اختيار الصديق:

«لَا تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقاً فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ».

وهذا كلام موجّه إلى من يوزّع صداقاته هنا وهناك وعلى صعيد واحد، فيجمع بين الشتات وقد يكون صديقاً لأطراف متعادية، وكيف يتسنّى له ذلك إلّا أن يكون بالنفاق؟!

«وَلَا تَعْمَلْ بِالْخَدِيعَةِ فَإِنَّهَا خُلُقُ اللِّئَامِ، وَامْحَضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ».

وأمّا بالنسبة للأخ فلابدّ من محضه النصيحة سواء قبل أم لم يقبل، وسواء رضي أم سخط، وسواء وافق أن يبقى صديقاً لك أم لم يوافق. إنّ الصديق

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٤٢٢.

هو من أهدى إليّ عيوبي، وأبكاني من أجل أن أسعد، لا من يضحكني فأشقى! هكذا تمحض النصيحة.

«وَسَاعِدْهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَزُلْ مَعَهُ حَيْثُ زَالَ، وَلَا تَطْلُبَنَّ مُجَازَاةَ أَخِيكَ وَلَوْ حَثَا التُّرَابَ بِفِيكَ، وَخُذْ عَلَى عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحْرَى لِلظَّفَرِ، وَتَسْلَمُ مِنَ النَّاسِ بِحُسْنِ الْخُلُقِ وَتَجَرُّعِ الْغَيْظِ فَإِنِّي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَى مِنْهَا عَاقِبَةً وَلَا أَلَذَّ مَغَبَّةً، وَلَا تَصْرِمْ أَخَاكَ عَلَى ارْتِيَابٍ وَلَا تَقْطَعْهُ دُونَ اسْتِعْتَابٍ، وَلِنْ لِمَنْ غَالَظَكَ فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَك».

وهكذا يستمر الإمام عليه السلام في النصح والإرشاد بما يحفظ للإنسان إخوته وأصدقائه، فإنّهم حتى ولو بدا منهم شيء فلا يجب أن يُحمل على السوء، فإنّ الصديق لا يُفرّط فيه بمجرّد الخطأ ولا يسقط من العين لأيّ عيب، فلا يجوز أن تترك صديقك دون أن تستعتبه وتصارحه بما فيه من الأخطاء، لأنّ من الجائز أن تكون أنت المخطئ، ولدى المصارحة تنكشف الأمور وتصفو القلوب فتعود المياه إلى مجاريها، أمّا إذا كان معك غليظاً فعامله بلطف ولين مهما كان شديداً، فإنّه -بدوره- يلين معك تدريجياً.

وهكذا يستمر السياق في بثّ النصائح الهامّة لوضع البرامج التربوية الاجتماعية التي تدفع إلى تلاحم المجتمع ليتحوّل المجتمع المفكّك الأحادي إلى مجتمع متماسك مركّز متلاحم متفاعل كالكتل الصخرية القوية التي تتحدّى الأمواج العاتية.

كيف ينبغي أن يدير الإنسان نفسه؟

في القسم الباقي من الحديث يركّز الإمام علي عليه السلام على جوانب من الأمور السابقة، وهي في الواقع برنامج متكامل للإدارة الذاتية، حبّذا لو

طبقناها تطبيقاً حرفيّاً كما كان يفعل أصحاب رسول اللّه ﷺ، حيث كانوا إذا سمعوا كلاماً من رسول اللّه ﷺ انتشروا، فيقال لهم: إلى أين؟ فيجيبون: لكي نطبّق الكلام. فقد كانوا يستمعون الكلام للعمل لا لمجرّد العلم أو التسلية أو قضاء الوقت، وماأحرانا بالاقتداء بهم في هذا.

يشير الإمام عليه السلام لبعض أسباب الفشل في الحياة فيحذّر منها قائلاً ضمن وصيّته لنجله المجتبى عليه السلام:

«وَاعْلَمْ أَيْ بُنَيَّ أَنَّ الدَّهْرَ ذُو صُرُوفٍ، فَلَا تَكُونَنَّ مِمَّنْ تَشْتَدُّ لَائِمَتُهُ وَيَقِلُّ عِنْدَ النَّاسِ عُذْرُهُ، مَا أَقْبَحَ الْخُضُوعَ عِنْدَ الْحَاجَةِ وَالْجَفَاءَ عِنْدَ الْغِنَى».

فهو يحذّره من فعل السيئات كي لا يحتاج إلى الاعتذار منها، ثمّ يذمّ النفس التي تخضعها الحاجة أمّا عند الاستغناء فهي جافية لئيمة، فعندما يصبح مديراً مثلاً لا يعرف أحداً من أصدقائه بالأمس.

إنّ قيمة الإنسان إنّما تكبر إذا ما كبر هو فوق الشهوات والثروة والجاه والمنصب وكلّ الماديّات، يقول الإمام عليه السلام بهذا الصدد:

«إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ، فَأَنْفِقْ فِي حَقٍّ وَلَا تَكُنْ خَازِناً لِغَيْرِكَ، وَإِنْ كُنْتَ جَازِعاً عَلَى مَا تَفَلَّتَ مِنْ يَدَيْكَ فَاجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْك».

أي على الإنسان أن لا يطيل التفكير في الشيء الذي يذهب من يده فإنّه ليس من نصيبه، ولا يقلق ولا يجزع لأنّ القلق والجزع يهدمان الحياة.

نحن لماذا نجزع على مائة دينار مثلاً ضاعت منا قبل فترة ولا نستطيع أن ننساها؟ لنجزع إذن على ملايين الدنانير التي لم نحصل عليها أساساً لأنّها ليست في أيدينا فالقضية واحدة!

كانت الهند قبل الاستعمار مقاطعات عديدة وكلّ مقاطعة تخضع لحاكم مستقلّ عن الآخر، ولمّا جاء الاستعمار البريطاني أنهى أولئك الحكام وقام بتصفيتهم بشتى الطرق والحيل، وكان في مقاطعة من تلك المقاطعات أخوان يحكمانها فتعرّضا للطرد من قبل الاستعمار،فكان أحدهما يبكي بينما الآخر كان يضحك، فما كان من البكّاء إلاّ أن ابتلي -بعد فترة- بالجنون، ثمّ ما لبث أن مات، بينما الضاحك صمّم على العيش من جديد، فبدأ حياته ثانية من الصفر، فصار يزاول التجارة، ثمّ تحول إلى مؤرّخ، ثمّ انتقل إلى باكستان وعاش فيها ورشّح نفسه فيها لرئاسة الجمهورية لكنّه لم ينجح، إلاّ أنّه بقي شخصية مهمّة إلى أن مات، فانظر كم كان الفارق كبيراً بين الأخوين!

ثمّ يقول الإمام عليه السلام:

«وَاسْتَدْلِلْ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا كَانَ فَإِنَّمَا الْأُمُورُ أَشْبَاهٌ، وَلَا تَكْفُرَنَّ ذَا نِعْمَةٍ فَإِنَّ كُفْرَ النِّعْمَةِ مِنْ أَلْأَم الْكُفْرِ، وَاقْبَلِ الْعُذْرَ، وَلَا تَكُونَنَّ مِمَّنْ لَا يَنْتَفِعُ مِنَ الْعِظَةِ إِلَّا بِمَا لَزِمَهُ، فَإِنَّ الْعَاقِلَ يَنْتَفِعُ بِالْأَدَبِ وَالْبَهَائِمَ لَا تَتَّعِظُ إِلَّا بِالضَّرْبِ، اعْرِفِ الْحَقَّ لِمَنْ عَرَفَهُ لَكَ رَفِيعاً كَانَ أَوْ وَضِيعاً».

ثمّ يقول عليه السلام تأكيداً على دفع القلق:

«وَاطْرَحْ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْهُمُومِ بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْيَقِين».

إنّ الإنسان الذي يهتم دائماً ويحزن ويقلق حتى لو خلت حياته من أيّ إثارة أو صعوبة لن يعيش حياة هنيئة، بينما الإنسان الذي يقاوم الهم فإنّ أكبر الهموم لا تغيّر حياته، والإمام هنا يعطي للمَهْمومِ القَلِق علاجين:

الأوّل: عزائم الصبر.

الثاني: حسن اليقين.

والأوّل: -كما سبق- يأتي بالإيحاء النفسي بأنّ القادم أكثر من الذي ذهب، وتعلّم الصبر أي تحمّله حتى يصبح سليقة وعادة.

والثاني: أن تؤمن أنْ ما مِن شيء يحدث في الحياة إلّا ووراءه حكمة وهدف.

ثمّ يسترسل الإمام عليه السلام ليعطي حكمة قصيرة جامعة فيقول:

«مَنْ تَرَكَ الْقَصْدَ جَارَ، وَنِعْمَ حَظُّ الْمَرْءِ الْقَنَاعَةُ، وَمِنْ شَرِّ مَا صَحِبَ الْمَرْءَ الْحَسَدُ، وَفِي الْقُنُوطِ التَّفْرِيطُ، وَالشُّحُّ يَجْلِبُ الْمَلَامَةَ، وَالصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ، وَالصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ، وَالْهَوَى شَرِيكُ الْعَمَى، وَمِنَ التَّوْفِيقِ الْوُقُوفُ عِنْدَ الْحَيْرَةِ، وَنِعْم طَارِدِ الْهَمِّ الْيَقِينُ، وَعَاقِبَةُ الْكَذِبِ الذَّمُّ، وَفِي الصِّدْقِ السَّلَامَةُ، وَعَاقِبَةُ الْكَذِبِ شَرُّ عَاقِبَةٍ، رُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ وَقَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ».

أي لاتظن أنّ حوادث الزمن كبعضها، فقد تكون الأمور البعيدة في نظرك بعيدة في الواقع، كما أنّ الأمور القريبة في نظرك قد تكون قريبة في واقعها، وسوف نتعرض لهذه النقطة بالتفصيل إن شاء اللّه، ثمّ يقول عليه السلام:

«وَالْغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيب».

فمن يملك حبيباً لاغربة له أنّى كان هذا الإنسان.

«لَا يُعْدِمْكَ مِنْ حَبِيبٍ سُوءُ ظَنٍّ».

أي مهما كان حبيبك قريباً فإنّ فيه بالنسبة لك جزء من سوء ظن ولو بمقدار ذرّة.

«وَمَنْ حَمَى طَنَى».

أي من التزم بالحمية فإنّه سيتجنّب الوقوع في المهالك.

«وَمَنْ تَعَدَّى الْحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُه».

فالحق أفسح للإنسان من الباطل، وقد يتصوّر الإنسان العكس إلّا أنّ الواقع هو هذا، فإنْ كان الكذب منجياً فالصدق أنجى، ولو أنّ شخصاً أراد أن يتسلّق جبلاً ويوجد طريق واحد ضيّق للوصول إلى القمّة، ولكنه يتّخذ طريقاً آخر يراه أوسع وأسهل، إلّا أنّه يسقط بعد لحظات من شاهق لأنّه انتخب الطريق الوعر الذي حسبه سهلاً. فهذا ضاق مذهبه بل ضاق عندما تحدى الحق.

«وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَى قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَى لَه».

يحكى أنّ مجنوناً في مستشفى الأمراض العقلية بالعراق أيام الملكية كان لا يشكو شيئاً، ومن يراه يظنّه عاقلاً، إلّا أنّ السبب وراء بقائه في المستشفى أنّه ما كان يرضى بمجرّد اسمه، وإنّما كان يطلب من كلّ من يحدّثه وينادي باسمه أن يُضفي عليه لقب صاحب الجلالة، فهذا ما كان يرضى بواقعه!

وكم من الناس كصاحب الجلالة هذا لا يرضون بواقعهم، فهو دكتور مثلاً ولكنّه يقول: أنا برفسور، أو هو خريج ثانوية ولكنّه يقول: أنا خريج جامعة، وهكذا.

«نِعْمَ اَلْخُلُقُ اَلتَّكَرُّمُ، وَأَلْأَمُ اَللُّؤْمِ اَلْبَغْيُ عِنْدَ اَلْقُدْرَةِ، وَاَلْحَيَاءُ سَبَبٌ إِلَى كُلِّ جَمِيلٍ، وَأَوْثَقُ اَلْعُرَى اَلتَّقْوَى، وَأَوْثَقُ سَبَبٍ أَخَذْتَ بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اَللَّهِ، وَمَنَّكَ مَنْ أَعْتَبَكَ، وَاَلْإِفْرَاطُ فِي اَلْمَلَامَةِ يَشُبُّ نِيرَانَ اَللَّجَاجِ».

وهذا يعني أنّك لو أسرفت في لَوْم من هو دونك من المرؤوسين أو

العيال أو الخدم أو حتى الأصدقاء، أو كثّرت عليهم الأوامر بين لحظة وأخرى لكان هذا الإلحاح سبباً في نفورهم وإزعاجهم ثمّ غضبهم، وبالتالي يبدؤون بالمشاكسة واللجاج، فالإفراط في اللوم والأوامر خطأ يؤدّي إلى تفرّق الناس من حول الإنسان.

«وَكَمْ مِنْ دَنِفٍ قَدْ نَجَا وَصَحِيحٍ قَدْ هَوَى -إذ إنّ الأقدار بيد اللّه وليست بأيدينا-، وَقَدْ يَكُونُ الْيَأْسُ إِدْرَاكاً إِذَا كَانَ الطَّمَعُ هَلَاكاً، وَلَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تُظْهَرُ، وَلَا كُلُّ فَرِيضَةٍ تُصَابُ -فلربما في بعض الأوقات يكون أجدى للإنسان لو تسلّح باليأس؛ لأنّ اليأس إحدى الراحتين، والمزيد من الطمع يورث الهلاك-، وَرُبَّمَا أَخْطَأَ الْبَصِيرُ قَصْدَهُ وَأَصَابَ الْأَعْمَى رُشْدَهُ، لَيْسَ كُلُّ مَنْ طَلَبَ وَجَدَ وَلَا كُلُّ مَنْ تَوَقَّى نَجَا، أَخِّرِ الشَّرَّ فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ».

إنّ أحد الحكماء يقول: إذا أردت أن تثبت للناس بأنّك عاقل فقد تحتاج إلى أربعين سنة من العمل الدائب الفعّال والحكيم، أمّا إذا اردت أن تبرهن لهم أنّك مجنون فإنّك لاتحتاج لأكثر من لحظتين لإثبات ذلك!

الإمام علي عليه السلام يقول هنا بأنّ على المرء أن يبعد الشرّ عن نفسه ولا ينويه لحظة، بل عليه أن يتعجّل الخير لأنّه قد يفوت.

«وَأَحْسِنْ إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاحْتَمِلْ أَخَاكَ عَلَى مَا فِيهِ، وَلَا تُكْثِرِ الْعِتَابَ فَإِنَّهُ يُورِثُ الضَّغِينَةَ وَيُجَرُّ إِلَى الْبِغْضَة، وَاسْتَعْتِبْ مَنْ رَجَوْتَ إِعْتَابَهُ، وَقَطِيعَةُ الْجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ الْعَاقِلِ».

أي اقطع الجاهل وصل العاقل، ولا تقل إنّ هذا صديقي ولا أستطيع أن أتركه رغم أنّه جاهل.

«وَ مِنَ الْكَرَمِ مَنْعُ الْحَزْمِ، مَنْ كَابَرَ الزَّمَانَ عَطِبَ، وَمَنْ يُنْقَمْ عَلَيْهِ غَضِبَ،

مَا أَقْرَبَ النَّقِمَةَ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ، وَأَخْلَقُ بِمَنْ غَدَرَ أَلَّا يُوفَى لَهُ».

لاتصارع الزمان إذا سار نحو وجهة معينة لتقول يجب أن يصير هذا مثلاً فإنّك تهلك.

وإلى هنا نكتفي بهذا القدر من وصية الإمام علي عليه السلام لنستعرض فيما بعد جوانب أخرى من اهتمام الإسلام بالإنسان وتربيته له عبر تطهيره من الرذائل والموبقات وأوساخ الدنيا، وتوجيهه نحو القيم والمثل العليا، وإثارة عقله ليعرج في رحلة تكاملية إلى اللّه سبحانه وتعالى.

خلاصة القول

أنّ كلّ إنسان مسؤول عن نفسه لكي يكون ناجحاً في الحياة من جميع الجوانب وكلّ الأبعاد، وعليه تحقيق الأهداف التي جعلها الإسلام له، وذلك باتباع الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة والروايات التي أُثِرت عن أئمّة الهدى من أهل البيت عليهم السلام، والاستعانة على ذلك بالكتابات الحديثة التي تبحث في هذا المجال، فإنّ من المهم بالنسبة للإنسان أن يحرز النجاح في الحياة، وبالتالي في دار النعيم في الآخرة.

الفهرس

تقديم ٥

(١)
شرح حديث الرسول ﷺ عن العقل

حديث الرسول ﷺ عن العقل ١١
مقدّمات ١١
ما هو العقل؟ ١١
تعريف العقل: ١١
ما هي الشهوة؟ ١٢
المفارقة بين العقل والشهوات: ١٣
الدليل إلى العقل: ١٤
كيف يُعرف العقل؟ ١٥
التنبيه سبيل العقل: ٨١
استقلال العقل ٢٤
العقل يطيع الله ٢٤
العقل والشخصيّة المتكاملة ٢٥
بين العقل والحلم: ٦٢

بين الحلم العلم: ٢٧
بين العلم والرشد: ٧٢
بين الرشد والعفاف: ٨٢
بين العفاف والصيانة: ٨٢
بين الصيانة والحياء: ٩٢
بين الحياء والرزانة: ٠٣
بين الرزانة والمداومة على الخير: ٠٣
بين المداومة على الخير وكراهية الشر: ١٣
بين كراهية الشر وطاعة الناصح: ١٣
سؤال أخير: ٢٣
الثقة مفتاح العقل ٣٢
التوكّل ثقة لا تحد: ٥٣
ضغوط الجبت من هوى وشهوات ٣٦
نصوص إسلامية في التوكّل: ٣٧

(٢)

شرح وصايا

الإمام الكاظم عليه السلام لهشام حول العقل

وصايا الإمام الكاظم عليه السلام لهشام حول العقل ٤٣
تمهيد ٤٣
العقل في بصائر الوحي ٤٧
ما هو العقل؟ ٤٧
الإمام الكاظم عليه السلام يصف العقل ٥٣

الله تعالى يبشّر العقلاء ٥٤
الوحي يكمل العقل..... ٥٥
كيف كمل الوحي عقل الإنسان؟ ٥٦
حجّة ظاهرة وحجّة باطنة ٦٠
صفات العقل..... ٦٢
العقل وسيلة الطاعة ٦٥
كيف ننمّي موهبة العقل؟ ٦٧
إيقاظ العقل ٧٣

(٣)

شرح خطبة الإمام الرضا عليه السلام في معرفة التوحيد

أوّل معرفة الله..... ٩٣
المنهج الصائب لمعرفة اللّه تعالى ٩٤
الحجاب الذاتي بين الخالق والمخلوق ٩٤
الأدوات دليل العجز..... ٩٥
أسماؤه تعبير ٩٥
لا يتغيّر بتغيير المخلوقين..... ٩٦
لا تعطيل ولا تشبيه ٩٦
تنزيه اللّه عن الحدود ٩٧
عجز الخلائق دليل كمال الخالق..... ٩٨
الزمان دليل أزليّة خالقه..... ٩٩
منهج معرفة الله ١٠٠
بالتقديس نعظّم الرب..... ١٠٢

(٤)

الأبعاد الفقهية العامة
لحديث الإمام الصادق عليه السلام في المكاسب
(شرح حديث المكاسب)

الإمام الصادق عليه السلام يبيّن أحكام الأنشطة الاقتصادية: ١٠٥
أقسام المكاسب: ١٠٦
ولاية العدل وولاية الجور: ١٠٦
التجارة بين الحلال والحرام: ٧٠١
الإجارة بين الحلال والحرام: ٨٠١
الصناعة بين الحلال والحرام:..... ١١٠
تأمّلات في الحديث: ١١١
الموظّفون: ٢١١
التجارات: ١١٣
الإجارات (أو بيع الخدمات): ١١٤
الصناعات: ١١٥

(٥)

شرح كلام لأمير المؤمنين عليه السلام عن دعائم الايمان

تفسير دعائم الإيمان: ١٢٠
ألف/ الصبر أوّل دعائم الايمان:..... ١٢١
باء/ اليقين زهرة الإيمان: ١٢١

جيم/ العدل جوهر القيم: ١٢٣
دال/ الجهاد حصن الإيمان: ١٢٥
٥/ أبعاد الإيمان ١٢٦

(٦)

بناء الإنسان الرسالي
في وصية الإمام علي لابنه الإمام الحسن عليه السلام

كيف ينمّي الرساليّ العقلَ؟ ١٣٦
الإنسان الرساليّ بين حبّ اللّه وخشيته. ١٤٠
القادة يصنعون الرجال. ١٤٠
برامج إعداد الرجال. ١٤٢
أوّلاً: الحب. ١٤٤
ثانياً: الخوف. ١٤٩
حين نعرف حقيقة الدنيا ١٥٠
لماذا الغرور بالدنيا؟ ١٥٠

شرح
روايات النبيّ وأهل بيته في:
العقل التوحيد المكاسب دعائم الإيمان

لكلمات المعصومين - مع الاعتراف بنوريّتها جميعاً - خصائص ومميزات، فمنها ما هو أصل وكلّي وقاعدة يُستنبط منها الفروع، فتتوزّع على الجزئيات وتستوعب الكثير من الأفراد، ومنها ما هو فرع يكشف عن حكم النوع ويستمر نوره في سائر ذات الأنواع وينطبق على نفس الحالات، وكلها بملاحظة هذا التقسيم نور يستطيل إلى الأمام ويمتدّ إلى الآفاق.

وفي هذا الكتاب الذي نقدّمه للقارئ العزيز، في سلسلة شروح المرجع المدرّسي (دام ظله) نتابع تقديم شروح الروايات الشريفة الصادرة عن أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام بوصفها الكلّي الجامع والأصول والقواعد، وهي هنا مجموعة من الخطب والبيانات المطوّلة التي جادت بها صدور أهل الوحي، لنجد أن المرجع المدرّسي يقدّم لنا في شرحها شرحاً يأخذ في حساباته خاصية مثل هذه الخطب التي تنتج معرفة متكاملة لأنها من قسم روايات الأصول.

المعرفة المتكاملة هي ما يمكن أن نطلق عليه بالمعرفة المنهجية، أي إبراز المعاني والدلالات المترابطة في الخطب والبيانات كنظريات وتفسيرات كلّية، وكمنهج في طريق المعرفة، وكبصائر عامّة نفهم من خلالها معارف الإسلام ومقاصد الوحي الشريف.